الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم
(١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/١١ رجب سنة ٦٩١هـ)

د. / فايز نجيب اسكندر
كليـــة الآداب–جامعـــة بنـــها

كانت مملكة أرمينية الكبرى بمثابة دولة حـــاجزة ETAT TAMPON، أي دولة واقعة بين دولتين متصارعتين تحول دون تصادمهما، وقد أدى الجبليون الأرمـــن هذا الدور أحسن أداء. وكان لمصلحة الإمبراطورية البيزنطية الحفاظ على كيان تلـــك الدولة الحاجزة، خاصة بعد نجاحها في صد هجمات الأتراك الســـلاجقة في مراحلـــها المبكرة وكبح جماح تلك القبائل الطموحة إلا أن سياسة الإمبراطورية البيزنطية العقيمـــة واستراتيجيتها الخاطئة حطمت ذلك الحاجز الواقي وذلـــك بغزوهـــا أرمينيـــة ســـنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـــ[١]، فكان هذا التحطيم باهظ الثمن، إذ تمكن الســـلاجقة في ١٦ أغسطس سنة ١٠٦٤م/٢٩ شعبان سنة ٤٥٦هـــ [٢] من الاستيلاء علـــى "آنى" Ani عاصمة مملكة أرمينية الكبرى، ثم تقويض بنيان الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة فى معركـــة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٣هـــ ونجاح السلاجقة فى ابتلاع آسيا الصغرى وتأســـيس سلطنة سلاجقة الروم بعاصمتها قونية [٣].

ولقد ترتب على الأحداث السالفة الذكـــر هجرة الأرمن نحو الجنـــوب الى "الرها" الواقعة في إقليم الجزيرة الغربي، بالقرب من الطريق التجاري الكبير الذي يمتـــد علـــى الفرات. كما اتجه الأرمن من قبل إلى قبادوقيا وذلك أوائل القـــرن العاشـــر الميلادي/أوائل القرن الرابع الهجري؛ وكذا الى إقليم قيليقيا والذي كـــان البـــيزنطيون قـــد هجـــروا إليـــة من قبل كثير من الأرمن وذلك عقب غزوهـــم أرمينيـــة ســـنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـــ؛ وكان من بين هؤلاء بطريرك الأرمن الذي كان قد ترك العاصمـــة "آني" Ani منذ سنة ١٠٥٤م/٤٤٦ هـــ وأخـــذ مقـــره يتنقـــل حـــتى استقـــر ١١٥٠م/٥٤٥ هـــ بقلعـــة الروم على نهر الفرات [٤].

---

(١) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر : غزو الإمبراطورية البيزنطية الأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـــ الإســـكندرية ١٩٨٨م.

(٢) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آنى" سنة ١٠٦٤م/٤٥٦هـــ-الإســـكندرية ١٩٨٧.

(٣) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد-الإسكندرية، ١٩٨٤.

(٤) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى (١٢٥٠-١٣٧٥م/ ٦٤٨-٧٧٦ هـــ) الإسكندرية ١٩٨٠.

ولقد قامت «مملكة أرمينية الصغرى» LE ROYAUME DE LA PETITE ARMENIE في المنطقة التي عرفت قديما باسم «قيليقيا» [1] . CILICIE، وتقع تلك المملكة في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى. وتكاد تكون حدودها طبيعية [2] . فمن لشرق يحدها جبال الأمانوس [3]. ومن الشمال والشرق جبال طوروس؛ أما في الجنوب ، فالبحر المتوسط تمتد سواحله من مدينة طرسوس [4] إلي جنوب

---

(١) كان من بين نتائج فتوحات الأتراك السلاجقة للأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى هجرة جموع غفيرة من الأرمن من بلادهم الأصلية في أرمينية الكبرى إلى الأقاليم الواقعة غرب وشمال نهر الفرات، ليستقروا جنبا إلى جنب مع إخوانهم الأرمن المستقرين من قبل في تلك المواضع. وعقب معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٤هـ إلتجأ الكثير من الأرمن إلى جبال طوروس وإقليم قيليقيا وشمال بلاد الشام. علماً بأن جميع المواضع السابقة تواجد بها زعماء من الأرمن كانوا قد سبقوا إليها واستقروا فيها. وهكذا غدا الأرمن في قيليقيا قوة عظيمة وكبيرة حتى أطلق المؤرخ الفرنسي المحدث رينية جروسية RENE GROUSSET على «قيليقيا» آنذاك اسم «أرمينية الجديدة» LA NOUVELLE ARMENIE للتفاصيل أنظر

CH. 65, P.78, Dans R.H.C., Doc.. ARM., 1; Matthieu D'EDESSE, EXTRAITS,: NERSES DE Lambron, DANS R.H.C., Doc.. ARM., 1, P. 576. CF. Grousset, HISTOIRE DE L'ARMENIE, PARIS, 1947, P. 522; IDEM, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, PP. 175, 385; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE, PP. 87-88; CAM. MED HIST., VOL. IV, P. 638; PASDERMADJIAN, HISTOIRE DE L'ARMENIE, P. 198.

(٢) RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES, Doc. UMENTS ARMENIENS, PARIS, 1869-1806, T.I,P. XIX.

× وسنشير إلى « مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية» اختصاراً بـ: R.H.C., Doc. ARM.,

(٣) «جبال الأمانوس» هي شعبة من جبال طوروس، تتصل بقيليقيا من جهة الشرق وتفصلها عن بلاد الشام. وما اشتهرت به جبال الأمانوس من الدروب إنما يرجع إلى أن جميع الغزاة احتازوها، فمنها فتح المسلمون قيليقيا وما يليها من جهات آسيا الصغرى، وكان لابد للإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس NICEPHORE PHOCAS أن يجتازها ليهاجم سيف الدولة الحمداني في صميم دولته. (انظر: R.H.C., Doc. ARM., T. 1, PP. XXVI-XXVIII. CF. SCHLUMBERGER, UN EMPEREUR BYZANTIN AU DIXIEME SIECLE, NICEPHORE PHOCAS, PARIS, 1870, P. 207.) والجدير بالذكر أن ممرات الأمانوس كانت دائما الممر البرى الجنوبي لكل الحملات المصرية نحو قيليقيا-أي أرمينية الصغرى-وبذلك تشابهت أهميتها الاستراتيجية بشبة جزيرة سيناء بالنسبة لمصر، فقد كانت شبة سينا الممر البرى الشرقي لغزو مصر طوال العصور.

(٤) «طرسوس» من المدن القديمة، وبها قبر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد، لأنه كان قد وفد عليها غازيا مرة بعد أخرى، فمات بموضع يعرف باليذندون، وقريب من طرسوس في سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية . (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر-تحقيق عبد العزيز الخويطر-الرياض ١٩٧٦-ص ٤٣٨-٤٣٩؛ النويرى: نهاية الأرب من نهاية الأدب-مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٥٤٩ معارف عامة - جـ ٢٨، ورقة

الإسكندرية [1]. وتبلغ مساحتها حوالي أربعين ألف كيلو متر مربع بطول ٤٠٠ كيلو متر من الشرق الى الغرب، وعرض مائة كيلو متر من الشمال الى الجنوب. كان ذلك في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي/أوائل القرن السابع الهجري [2].

وقد أطلقت المصادر الإسلامية على هذا الأقليم اسم "الدرب" [3]، أي الطريق الذي يسلك ما بين طوروس والإمبراطورية البيزنطية؛ لذا لقب "ابن الأثير" (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م) في مصدرية "التاريخ الباهر" و "الكامل في التاريخ" أمير أرمينية باسم "صاحب بلاد الدروب [4]".

---

١٠٧ أ؛ ابن ابي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد-تحقيق بلوشيه – BLOCHET باريس ١٩١١-١٩٣٢-ص ٣٩٢) وتقع تلك المدينة الأرمينية على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، بالقرب من حلب غربا . وهي مدينة مسورة وفى غاية الخصب، بناها الرشيد في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وأكملها فى سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م. ولها خمسة أبواب: باب الجهاد، وباب الصفصاف، وباب الشام ، وباب البحر والباب المسدود. والنهر يشق فى وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد. وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين الروم والمسلمين. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا- القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠- جـ ٤، ص ١٣٣؛ البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع – تحقيق على محمد البجاوى – القاهرة ١٩٥٤م جـ ٣، ص٨٨٣. أنظر أيضا: R.H.D., Doc. ARM., T.I., P. XL. وكذلك: فايز نجيب إسكندر: موقعة ملاذكرد وصداها فى القسطنطينية – القاهرة ١٩٨٨-ص ١٩، حاشية رقم ٥٩.

(١) "الإسكندرية" مدينة في شرقي إنطاكية، عل ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ، وبينها وبين إنطاكية على ساحل بحر الشام ثمانية فراسخ. (أنظر: البغدادى: مراصد الاصلاع، جـ ١، ص٧٦) وتعد الاسكندرية "أول حدود بلاد سيس" (أنظر: الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده- تحقيق بربارة شيفر-القاهرة ١٩٧٨-ص٨؛ المقريزى: السلوك، ج٢، ص٤٢٨.) وهو الممر الوحيد الذى يصل بين قيليقيا وإنطاكية. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٩.

(٢) R.H.C., DOC. RAM., T.I, PP. II-III, XVIII-XIX. CF. TOURNEBIZE, HISTOIRE POLITIQUE ET RELIGIEUSE DE L'ARMENIE, PARIS, 1910, P.6; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE PARIS 1930, PP. 9-10: BASMADIIAN QUELLES ETAIENT LES FRONTIERES DE L'ARMENIE? PP. 21-25 DANS LA VOIE DE L'ARMENIE, PARIS, 1919; KHERUMIAN, INTRODUCTION A L'ANTHROPOLOGIE DU CAUCASE-LES ARMENIENS, PARIS, 1943, PP. 11-12; ERMONI, L'ARMENIE, DANS R.O.C., PARIS, 1896, T.I, P. 318; VEOU, LA PASSION DE LA CILICIE, PARIS, 1954, P.47.

(٣) هناك أكثر من مكان عرف باسم " الدرب" ذكر بعضها "ياقوت الحموى" فى "معجم البلدان". ولكنه قال إذا ذكر الدرب وحده دون أن يضاف إليه اسم موضع يحدده، يكون المقصود به مابين

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ-القاهرة ١٢٩٠هـ – جـ ١١، ص ١٤٥؛ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل- تحقيق عبد القادر احمد طليمات – القاهرة ١٩٦٣-ص ٣٠٧.

لقد ناصبت مملكة أرمينية الصغرى [1] سلطنة المماليك العداء، إذ ساعدت بفاعلية المستعمرات الصليبية في بلاد الشام، وتحالفت مع تتار فارس لغزو بلاد الشام ومصر، هذا إلى جانب مساهمتها بفاعلية في فرض الحصار الاقتصادي على سلطنة المماليك بمنعها تصدير الأخشاب والحديد وكافة أنواع السلع الاستراتيجية من آسيا الصغرى الى مصر والشام. فقد سار الصراع العسكري بين مملكة أرمينية الصغرى وسلطنة المماليك جنبا من الصراع التجارى، إذ وقف ثغر الاسكندرية شامخا في وجه ثغر اياس، كما كانت حلب واقفة بالمرصاد في وجه العاصمة الأرمينية سيس SIS.

وكان من الطبيعى –نتيجة تلك السياسة العدائية – أن يتبع سلاطين المماليك مع مملكة أرمينية الصغرى سياسة قائمة على العنف والقسوة ومحاولة الإبادة، كحال السياسة التى اتبعوها مع المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام ومع التتار. لذا توالت إغارات جيوش المماليك على مملكة أرمينية الصغرى طوال عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقارى [2] (٦٥٧-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)، وقلاوون الألفى [3] (٦٧٨-

---

(١) سميت باسم "أرمينية الصغرى" للتمييز بينها وبين "أرمينية القديمة" المعروفة باسم "أرمينية الكبرى" و "أرمينية القديمة" هى أواسط أجزاء آسيا الصغرى وأكثرها ارتفاعا. وهى محصورة بين سلسلتين من الجبال هما: سلسلة جبال بنطس شمالا وسلسلة طوروس جنوبا؛ وتمتد ما بين آسيا الصغرى الى الغرب من نهر الفرات، وبين أذربيجان والإقليم الجنوبي الغربي من بحر الخزر، في اتجاه ملتقى نهر الكر ونهر الرس شرقا، وبين إقليم بنطس إلى الشمال الغربى والقوقاز، ومن ثم ينفصلها خط نهري ريونة والكر شمالا، وبين سهل الجزيرة أى ما بين النهرين جنوبا، وهى منطقة دجلة الأعلى. أنظر : فايز نجيب أسكندر. مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى–الإسكندرية ١٩٨٠–ص ب.

(٢) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسلامي فى مواجهة تحالف المغول والارمن–مجلة الثقافة اليمنية–العدد ١٩–سبتمبر ١٩٩٥.

(٣) بعد الهزائم المتلاحقة التى منى بها الجيش الارمنى ووصول المنصور قلاوون ألي ابواب الاسكندرية "أول حدود بلادسيس"، واعتناق تتار فارس الاسلام، أدرك الملك الارمنى ليون الثالث (١٢٧٠-١٢٨٩م/٦٦٩-٦٨٨ هـ) ضرورة عقد صلح مع مماليك مصر. فعقدت هدنة لمدة عشر سنوات اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الخميس ثاني شهر ربيع الاخر سنة ٦٨٤هـ/٧ يونيو ١٢٨٥م (راجع نص الهدنة في ابن عبد الظاهر : شريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور–تحقيق مراد كامل–القاهرة ١٩٦١–ص٩٣ وما بعدها ؛ المقريزى : السلوك، جـ١، ق٣ ، ص ٩٨٥ وما بعدها ؛ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢٧٠ وما بعدها . أنظر أيضا LANGLOIS, LE TRESOR DES CHARTES D'ARMENIE, VENISE, 1863, PP. 217 SQQ;IDEM, ESSAI HISTORIQUE ET CRITIQUE SUR LA CONSTITUTION SOCIALE ET POLITIQUE DE L'ARMENIE, ST PETERSBOURG, 1860, P. 15; REINAUD, EXTRAITS DES HISTORIENS ARABES, PARIS, 1829, PP. 552-558; TOUR NEBIZE, PP. 217-218)

وكانت شروط الهدنة قاسية بالنسبة للأرمن، إذ كان عليهم أن يدفعوا جزية سنوية قدرها ألف ألف درهم من الفضة. وأن يخلى الملك الأرمني سبيل جميع التجار والمواطنين المسلمين المعتقلين في قيليقيا ويعيد إليهم أملاكهم.

٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) وابنه الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٢هـ / ١٢٩٠-١٢٩٢م) واستمر حال الإغارات تهدأ حينا لتزداد أحيانا إلى أن تمكن السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤-٧٧٨هـ /١٣٦٣-١٣٧٦م) من فتح مملكة ارمينية الصغرى، وضمها نهائيا لسلطنة المماليك وذلك سنة ١٣٧٥م/٧٧٦هـ[1].

والذى يهمنا في هذا الموضوع هو تتبع كيفية تمكن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون من الاستيلاء على "قلعة الروم" [2]. HOROMKLAY . ومما يذكر أن الأشرف خليل[3] سار على نفس سياسة والدة العدائية تجاه الصليبيين والأرمن والتتار. ففي مملكة عكا الصليبية، والتي تمثل البقية من المستعمرات الصليبية في بلاد الشام آنذاك. فنزل عليها يوم الخميس الخامس من أبريل سنة ١٢٩١ م/الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ، فنصب عليها أثنين وتسعين منجنيقا، محكما بذلك حصارها. وقد بذلت حامية عكا جهودا مضنية فى سبيل الدفاع عن المدينة؛ إلا أن مماليك الأشرف خليل نجحوا في اقتحام أسوارها وذلك يوم الجمعة الثامن من عشر من مايو سنة ١٢٩١م/السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ بعد حصار دام أربعة وأربعين يوما؛ كما نجح الأشرف خليل في فتح صور، وحيفا، وصيدا، بيروت، وعثليث وأنطرطوس.

ومقابل ذلك يطلق السلطان قلاوون سراح جميع الأسرى الأرمن، ولكن لا تعاد إليهم أملاكهم. وعلى الملكين المتعاهدين أن يسلما الهاربين من الطرفين كل إلى الآخر، على أن يبقى في مصر الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام. وللمماليك حق شراء الرقيق من مملكة أرمينية الصغرى. ووقع ليون الثالث على هذه المعاهدة مرغما، ولكنه منع بيع الرقيق للمماليك، حتى لا تقوى بهم عليه . أنظر : TOURNEBIZE, P. 218.

(١) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى ، ص٩٩-٢٥٠.

(٢) تحدث العالم الجليل الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور- أستاذ أساتذة تاريخ العصور الوسطى-عند هذا الموضوع في سبعة أسطر. أنظر : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى. محاضرة منشورة فى بحوث ودراسات العصور الوسطى-بيروت ١٩٧٧ ص ٢٦٠.

(٣) ولى "الأشرف خليل بن قلاوون" أمر الملك بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك من النواحي الإسلامية، وجلس على التخت، وركب بشعار السلطنة في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ نوفمبر ١٢٩٠م بعد وفاة والدة قلاوون الألفى. أنظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه-تحقيق محمد محمد أمين- القاهرة ١٩٧٦- جـ١، ص ١٣٦؛ الكتبى : فوات الوفيات-تحقيق إحسان عباس-جـ١، ص ٤٠٦-٤١٥.
أنظر أيضا GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, PARIS, 1936, III, p. 750.

وبسقوط عكا فى قبضة الأشرف خليل، انتهى الفصل الختـــامي في تـــاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى مصر التي قامت-طـــوال عهد الحروب الصليبية-بدور إيجابي فعال، كحالها الى مر العصور، إذ كـــانت محـــور المقاومة الإسلامية حتى تم على يديها أخيراً "سقوط عكا" وطرد المستعمر الصليبى مـــن بلاد الشام [1]، بعد أن زجت به مياه البحر المتوسط على حد قول المؤرخ الفرنســـي المحدث "رينيه جروسيه"[2] RENE GROUSSET.

وكان من أهم نتائج سقوط عكا أن استعد المماليك لتوجيه سلاحهم صـــوب مملكة أرمينية الصغرى، بعد أن أضحت تلك المملكة المعقل الصليبي الأخـــير في قـــارة آسيا، وقاعدة مرتقبه لكل حملة صليبية جديدة. ومما لا شك فيه ان هذا الفتح العظيـــم قد أكتسب الأشرف خليل ومماليكه مجداً وعطفاً من ربوع العالم الإسلامي آنذاك، لـــذا رغب الأشرف في توجيه هذا الحماس المتدفق صوب مملكة أرمينية الصغرى من ناحيـــة وأسيادهم التتار من ناحية ثانية.

وبالفعل بدأ السلطان المملوكى بـــالخطر الأول المتمثـــل فى مملكـــة أرمينيـــة الصغرى. بدأ المعركة بنوع من "الحرب النفسية"، إذ أرسل كتاباً الى ملـــك مملكـــة أرمينيـــة الصغـــرى [3] "هيثـــوم الثـــاني (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١ هـــ)

---

(١) للتفاصيل أنظر : GORUSSET, OP. CIT., T.III, pp. 750-776 .

(٢) GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, P. 400.

(٣) رفض المسلمون عامة الإشارة الى حاكم "أرمينية الصغـــرى" بلفظ "ملك" وإنما أطلقوا عليه فى أغلب الأحيان لقب "متملك" بمعنى أن الأرمـــن امتلكوا تلك البـــلاد قهراً مـــن المسلمـــين أصحـــاب السيـــادة الشـــرعية عليهـــا وعليهـــم. وقد عبر "شهـــاب الـــدين بن العمـــرى" عن ذلك بقـــوله:"... وكـــانت طاعتـــهم آخرـــاً لبقيـــة الملـــوك السلاجقة الـــروم، وعليهـــم جزيـــة مقـــررة وطـــاعـــة معروفـــة، والعمـــال والشحـــاق علـــى الـــبلاد من جهـــة الملك السلجـــوقى، حـــتى ضعـــفت تـــلك الـــدولة {صـــاحب أرمينيـــة الصغـــرى} .. واستـــولى علـــى هـــذه البـــلاد وتملكـــها، وتحـــيف مـــواريث بـــنى سلجـــوف واستهلكـــها" . (أنظر: التعـــريف بالمصلـــح الشـــريف-مصر،١٣١هـــ- ص٥٥-٥٦). أمـــا القلقشـــندى فقـــد ذكـــر عـــن أرمينيـــة الصغرى ما نصـــه : "... وإنما يقـــال له متمـــلك سيس دون مـــلك سيـــس لمـــا تقـــدم مـــن أنـــها كـــانت أولا بيـــد المسلمـــين، ثـــم وثـــب عليهـــا رئيـــس الأرمـــن المقـــدم اللعين {صاحب أرمينية الصغرى} ... واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيـــف مواريـــث بـــنى ســـلجوف واستهلكها". (أنظر : التعريف بالمصطلح الشريف-مصر، ١٣١٢هـــ-ص٥٥-٥٦). أما القلقشندى فقد ذكـــر عن أرمينية الصغرى ما نصه: "... وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كـــانت أولا بيـــد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فتملكها من أيدي المسلمين ". (أنظر: صبح الآعشى، جـــ ٨ ،

HETUM[1] اخبره فيه بفتح عكا، وذكره بقوة سلطنة المماليك وعظمة جيوشها التى احكمت الأطباق على ذلك المعقل الصليبي الأخير وفتحة؛ كما دعاه ألي سرعة أرسلل القطعية المقررة، والحضور لمقابلته. وأخيراً طلب منها أن يعتبر بما حل بعكا، وإلا "تندم ندامة أهل عكا حيث لا ينفع الندم" [2].

ونستشف من هذا الكتاب أن الشرف خليل أراد أن يؤكد ما للسلطنة المملوكية من السيطرة على مملكة أرمينية الصغرى.

أمام هذا التهديد والوعيد، طلب الملك الأرمني هيثوم الثاني مساعدة البابا نيقولا الرابع[1] (١٢٨٨-١٢٩٢م/ ٦٨٧-٦٩١هـ)

ص ٣٢.) ولقد تعددت الألقاب التي أطلقها المسلمون علة ملك مملكة أرمينية الصغرى، منها ابن لاون أو ليفون. ولاون هنا تحريف للفظ ليون LEON أول ملوك أرمينية الصغرى، فصار كل ملك من ملوكها يعرف ب "ابن لاون". ومن هذه الألقاب أيضاً "متملك سيس"-كما سبق أن أشرنا-أو "صاحب سس". كذلك أطلق عليه اسم "تكفور"، وهو لقب عام قصد به كل من جلس على عرش تلك المملكة، مثلما لقب إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية ب"الاشكرى"، وملك الحبشة ب "الحطى" أو "النجاشى". أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، ص ٢٦٩، ٣٢٩،٣٣٩ وما بعدها؛ العمرى: التعريف، ص ٥٥؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٨، ص ٣١.

(١) اعتلى "هيثوم الثانى" (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١هـ) HETUM II عرش مملكة أرمينية الصغرى بعد أبيه ليون الثالث LEON III سنة ١٢٨٩ سنة ١٢٨٩م/٦٨٨هـ، ولكنه تنازل عنه سنة ١٢٩٢م/٦٩١هـ لأخيه طوروس THOROS ودخل أحد أديرة الفرنشسكان. ولكن طوروس والبارونات كانوا يذهبون إليه فى الدير ويستشرونه فى مهام الأمور، وأضطره أخيراً بإلحاحهم عليه أن يعود إلى الحكم سنة ١٢٩٥م/ ٦٩٤ هـ. وفى سنة ١٢٩٧م/٦٩٦هـ ذهب هيثوم الثاني إلى القسطنطينية واصطحب معه طوروس وترك أخاه الأصغر سمباد SEMBAD لإدارة شئون المملكة، فاغتصب سمباد العرش. لكن البارونات الأرمن اضطروا هيثوم الثاني إلى اعتلاء عرش مملكة أرمينية الصغرى وذلك للمرة الثالثة. وبذلك تشبه هيثوم الثاني بالناصر محمد بن قلاوون في ولاياته الثلاث . للتفاصيل أنظر : LE ORI HETHOUM II, PP. 541-545; SEMPAD, PP.655-657; MARDIROS DE CRIMEE, LISTE RIMEE DES ORIS DE LA PETITE ARMENIE, P. 685; TABLE CHRONOLGIQUE DE HETOUM DE HETOUM, P. 490. CF. TOURNEBIZE, PP. 220-228; GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, P. 400.

(٢) أنظر : "ذكر مكاتبة السلطان الأشرف صلاح الدين الى صاحب سبس عند فتح عكا" فى : مرلف مجهول: تاريخ سلاطين المماليك-نشر.ف. زترستين-لندن ١٩١٩ م-ص٨. وكذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: سلطنة المماليك والأرمن، ص ٢٦٠؛ الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ١٢١٦. وعن تفاصيل سقوط عكا أنظر: ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ١، ص ١٢٣، ابن تغرى بردى: مورد اللطافة-تحقيق كارليل CARLYLE ١٧٩٢م-ص٤٥؛ ابن حبيب: درة الأسلاك فى دولة الأتراك-مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ج-جـ١، ورقة ١٦٣أ-١٦٦أ. أنظر أيضا SCHIL UMBERGER, PRISE DE SAINT JEAN D'ACRE EN L'AN 1291 PAR L'ARMEE DU SOUDAN D'EGYPTE, PARIS, 1914; STUBBS.

NICOLAS IV، الـذي استـاء إستيـاءاً بالغـا لسقـوط "طرابلـس" ثم "عكـا" فـي قبضـة المماليك، لـذا حرص-كعادة البابوات عقب كل كارثـة صليبيـة-على إثـارة الرأي العـام الأوروبي ضد سلطنـة المماليك. إلا أن جهـود البابا في استثـارة الغرب لإرسـال حمـلة صليبيـة الى الشـرق الأدنـى الإسلامـي باءت بالفشـل الـذريع. وكـان قـد خـطط لـدعوة ملـوك أوروبا الى التحـالف والتعـاون مـع التتـار والأرمـن[٢] والكـرج[٣] للقضـاء علـى سلطنـة المماليك، لكنه مـات فـي إبريـل سنـة ١٢٩٢م/ ربيـع الثـاني سنة ٦٩١هـ أثنـاء الإعـداد للحمـلة. وعقـب وفاتـه، توقـف مشـروع التحـالف ضـد سلطنـة المماليـك، لخلـو السـدة الرسـولية لمـدة عامـين[٤] ، وقعـت فيهما أحداث جسام أثرت تأثيراً مباشراً على العلاقـات المملوكية الأرمينية.

---

(١) أعتلي "نيقولا الرابع" NICOLAS IV السدة الرسولية في ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. وكان سلفة هونوريوس الرابع HONORIUS IV قد توفى في ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م، فظل الكرسي البابوي شاغراً طوال الفترة مـن ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م إلى ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. أنظر: GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, P. 716

(٢) اشتهر الأرمن بنشاطهم البناء في المجتمع الإسلامي، ويؤكد ذلك أن أسامة بن منقذ ذكر أخبار كثـيرين مـن الأرمن اشتهروا بالمهارة والرماية، واستعان بهم آل منقذ في الصيد والحرب على السواء. أنظـر الاعتبـار-ليـدن ١٨٨٤-١٠٦.

(٣) "الكرج" هم جيل من الناس نصارى، كانوا يسكنون في جبال القبق وقويت شوكتهم حتى ملكـوا مدينـة "تفليس" (أنظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٥٠ حاشية رقم ٢). وتقع بلاد "الكرج" على السـفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز. فحدودها الشمالية تسير بمحاذاة سلسلة جبال القوقاز؛ أما حدودها الشرقية، فـهى تتاخم بلاد داغستان الجبلية وسهول اذربيجان؛ وتحدها جنوبا أرمينية ومقاطعة قرص KARS؛ أمـا حدودهـا الغربية، فتطل على البحر الأسود. للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج-القـاهرة ١٩٨٨م-ص٧-١٨؛ أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة فى عهد داود الثاني- العدد الأول من مجلة المـورخ العربي-مارس ١٩٩٣-ص٢٥٢-٢٥٣؛ استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آنى" الإسكندرية ١٩٨٧-ص٣٤، حاشية رقم ٤٧؛ مملكة أرمينية الصغرى، ص١٣٧، حاشية رقم ٢.

(٤) للتفاصيـل أنظـر: LE ROIHETHOUM II, P. 542, CF. GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, PP. 716-747; DEDEYAN ET THIERRY, LE TEMPS DE LA CROISADE, DANS HISTOIRE DES ARMENIENS, TOULOUSE, 1982 P. 311; LODGE, THE CLOSE OF THE MIDDLE AGES, PP. 29, 51-54; KING, THE KNIGHTS HOSPITALLERS, PP. 75-79; MOWAT, THE LATER MIDDLE AGES, PP. 75-79; ATIYA, THE CRUSADES IN THE LATER MIDDLE AGES, P.45.

وكان من الطبيعي أن ينعكس فشل مشروع التحالف ضد سلطنة المماليك على مصير مملكة أرمينية الصغرى خاصة وان السلطان الأشرف خليل كان قد علم باستنجادات الملك الأرمني هيثوم الثاني.

ومما زاد الطين بلة أن وصل كتاب إلى القاهرة أرسله نائب حلب يفيد أن ملك مملكة أرمينية الصغرى تعرض لبعض تجار المسلمين، وألقى القبض عليهم بعد أن استولى على أموالهم، ونهب ما يحملونه من بضائع؛ وان نائب حلب أرسل يطلب منه إطلاق سراح الأسرى وإعادة أموالهم وبضائعهم المستولى عليها، وإلا فليستعد لمواجهة جيوش المماليك. فجاء رد الملك الأرمني[1] بأن أحداً لم يتعرض لأحد من التجار المسلمين، وأنه ليس هناك أسرى وأموال[2] . ولما وقف السلطان الأشرف خليل على ما جاء في كتاب نائب حلب، غضب غضباً شديداً، وأمر بعقد مجلس استشاري عسكري ضم كبار الأمراء لاستشارتهم في الأمر. فأشاروا على سلطانهم بغزو سيس[3] SIS، عاصمة

---

(١) "الأرمنى " وليس الأرميني، ويؤكد ذلك قول الشاعر :

ولو شهِدَتْ أمّ القديْد طِعانَنا بمرعش خَيل الأرمني أرنّت

أنظر: ياقوت: معجم البلدان-بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧-جـ١، ص ١٦٠؛البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ١، ص٦٠، حاشية رقم ٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض-بيروت ١٩٧٩-ص٢٩٤-٢٩٥؛ القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد-دار صادر بيروت-ص٥٢٤، أنظر أيضاً : فايز نجيب اسكندر : السلمون والبيزنطيون والأرمن فى ضوء كتابات المؤرخ المعاصر سيبوس-بيرت ١٩٩٤-ص٦٨، حاشية رقم ١٦٢؛ الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامي- القاهرة ١٩٨٨-ص٨، حاشية رقم ٤؛ الفتوحات الإسلامية لأرمينية في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني جيفوند، جـ١، ص١٠١، حاشية رقم ١٦٦؛ غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ- الإسكندرية ١٩٨٨- ص٢٨، حاشية رقم ١.

(٢) العيني : عقد الجمان، ق١، جـ٢١، ورقة ٥٥-٥٦.

(٣) "سيس" SIS وصحة هذا الاسم "سيسية" SISIYYA ، غير ان عامة الناس يسقطون الهاء، وقولون "سيس"، وهى عاصمة مملكة أرمينية الصغرى-أي قيليقيا ، وتقع بين إنطاكية وطرسوس. ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار على جبل مستطيل، ولها بساتين ونهر صغير؛ - البلدان، ص٢٥٦-٢٥٧؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص١٠٦، حاشية رقم ٢؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٤٩، حاشية رقم ٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٣٩، حاشية رقم ١؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٣٤-١٣٥؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٣٤. وقد ذكر الشجاعى أن "باب إسكندرونة هو أول حدود بلاد سيس". أنظر : تاريخ الملك الناصر محمد ، ص٨.

مملكـــة أرمينيـــة الصغـــرى، وتأديـــب ملكهـــا هيثـــوم الثـــاني[1] .

تحقيقـــا لتـــلك الغـــاية، رحـــل السلطـــان المملـــوكي مـــن مصـــر قاصـــداً بـــلاد الشـــام فـــي يـــوم السبـــت ٢٨ مـــارس سنـــة ١٢٩٢م/ثـــامـــن مـــن ربيـــع الآخـــر سنـــة ٦٩١هـــ[2] علـــى رأس جيـــش كبيـــر، وبصحبتـــه وزيـــره الصـــاحب "شمـــس الـــدين بـــن السلعـــوس" [3]، الـــذي كـــان قـــد سبـــق أن كلفـــة بـــأن يكتـــب إلـــى نـــواب الشـــام بالاستعـــداد للغـــزو وجمـــع المجـــانيق[4] وآلات الحصـــار المتنـــوعـــة والمـــؤن، ونـــادى بالنفيـــر للجهـــاد، ودخل دمشق وعرض العساكر [5]. وبعد يومين، وصل نائب حلب الى دمشق، وأخبر أن رسل الملك الأرمني في طريقهم لمقابلـة السلطان المملوكي. وبالفعل دهش الرسل الأرمن عند وصولهـــم دمشـــق لضخامـــة

---

(١) العيني : عقد الجمان، ق١، جـــ١٢ ، ورقة ٥٦.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، جـــ٨، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠ الكتبي: عيون التواريخ، جـــ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـــ٨، ص١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهـــة الإنسان في ذكر الملوك والأعيان -مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس-رقم FONDS ARABE 1769-ورقـــة ٢١ب.

(٣) اشتغل "شمس الدين بن السلعوس" فى أول أمره بالتجارة في دمشق، ثم تنقل في عديد من الوظـائف إلى أن ولى الحسبة والنظر فى ديوان الملك الأشرف في بلاد الشام. وتمكن من جمع الأموال الطائلة لقيامة باستحار ضيـــاع لحسابه الخاص. ثم قدم ألي مصر في عهد السلطان قلاوون الألفي، فعين ناظرا للديوان، لكنه عـــزل لابـــتزازه أموال بعض المقطعين، وعين قلاوون بدلاً منه فخر الدين بن الخليلى. عقب ذلك توجه ابـــن الســـلعوس الى الحجاز وعاد الى مصر بعد أن تولى الملك الأشرف خليل سلطنة المماليك وكان قد كتب إليه بخطه "باشقير يـــا وجه الخير، تعجل بحضورك لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية". أنظر: النويرى: نهاية الأرب، جـــــ٢٩، ورقة ٢٩٤أ-٢٩٤ب؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـــ٩، ورقة ١٦٧ب-١٦٨ أ؛ ابن كثير: البدايـــة والنهايـــة، جـــ١٣، ص٣٣٢؛ ابن ايبك الصفدى: الوافي بالوفيات، جـــ٤، ص٨٦، ترجمة رقم ١٥٥٥؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٩٠ ب؛ القيسراني. النور اللامع والدر الصادح فى اصطفا مولانا السلطان الملك الصـــالح – مخطوط بالمكتبة الوطنية بتاريخ رقم FONDS ARABE 1708 ورقة ٥٣ أ، ٥٤ ب، الصفاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٧١ أ-٧٢ أ.

(٤) "المجانيق": جمع "منجنيق"، وهو آله من خشب، لها دفتان قائمتان، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق الذي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه.

(٥) العيني : جـــ٢١، ورقة ٥٦؛ الكتبي : عيون التواريخ، جـــ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهـــة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢.

استعدادات الأشرف خليل؛ ودخلوا ألي حضرته، وقبلوا الأرض بين يديه، واخرجوا كتاب ملكهم، فإذا فيه: إن ما نُقِلَ عنه ألي السلطان غير صحيح، وأنه ما تعرض لأحد من التجار؛ وإذا ثبت خلاف ذلك، فأنه مستعد لدفع أضعاف ما نسب إليه من اخذ أموال التجار وبضائعهم. وأكد الملك الأرمني في كتابه أيضا أنه سيطلق سراح جميع الأسرى المسلمين المتواجدين في مملكته، وأنه على استعداد لمضاعفة الجزية المقررة عليه كسباً لود السلطان، وأن مملكة أرمينية الصغرى تعد بلاد ملاه الأشرف خليل، وهو نائب عنه فيها. وقد تقدم الرسل الأرمن بالهدايا الثيمنة من الأواني الذهبية والفضية والأواني المرصعة بالفصوص والبللور الفاخر، وغير ذلك من التحف النادرة[1].

ورغم الموافقة على مضاعفة القطعية[2]، والهدايا الثمينه، وفروض الولاء والطاعة، والاعتراف بالتبعية الكاملة لسلطنة المماليك؛ إلا أن الأشرف خليل صمم على المضي قدما فى حملته، وكان قد سبق له أن رحل من مصر قاصداً بلاد الشام فى يوم السبت ٢٨ مارس ١٢٩٢م/ثامن ربيع الآخر سنة ٦٩١هـ[3]، ودخل دمشق وعرض العساكر ومضى منها في يوم الاثنين ٥ مايو ١٢٩٢م/١٦ جمادى الأولى ٦٩١هـ[4]، فسار منها ألي حلب فدخلها في ١٧ مايو ١٢٩٢م/الثامن والعشرين من جمادى الأولى، ثم غادرها في ٢٣ مايو ١٢٩٢م/ الرابع من جمادى الآخر سنة ٦٩١[5] لمحاصرة "قلعة الروم" فنزل عليها يوم الثلاثاء ٢٧ مايو سنة ١٢٩٢م/ ٨ جمادى الآخر سنة ٦٩١هـ[1].

---

(١) العيني: جـ٢١، ورقة ٥٥-٥٦؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٥٥٩.

(٢) "القطعية" هي إتاوة سنوية، تعهد ملك مملكة أرمينية الصغرى بدفعها لسلطنة المماليك. وقد ذكر القلقشندى نقلا عن العمرى أن القطعية المقررة على مملكة أرمينية الصغرى بلغت "ألف ألف ومائتي درهم، مع أصناف". أنظر : صبح الأعشى، جـ٨، ص٣٠؛ العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥٦.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨ ، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ٨، ص١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص٢٦.

(٤) العيني: عقد الجهان، جـ٢١ ، ورقة ٥٦؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ مولف مجهول: نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢.

(٥) ابن الجوزي: جواهر السلوك، ورقة ١٠٩؛ محمد بن أبي بكر الصديق: نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزى: السلوك،

لقد عول السلطان الشرف خليل على ضم "قلعة الروم" الى حوزته حين علم أن أهلها يوادعون التتار، ويمدونهم بالهدايا، ويمالئونهم على المماليك، ويكثرون من الإغارة على الأطراف الشامية. ولا أدل على المصاعب التي كان يثيرها أهالي هذه القلعة ضد سلطنة المماليك أكثر مما ورد فى الكتاب الذي أرسله "علم الدين سنجر الشجاعى"[٢] نائب السلطنة[٣] بدمشق الى شهاب الدين [٤] بن الخويّى"

LE ROI HETHOUM II, DANS. R.H..G., ARM., T.I, P. : حـ١، ق٣، ص٧٧٨. أنظر أيضاً 542.

(١) الكتبى : حـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن أيبك: حـ٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزى: حـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ تاريخ الفرات، حـ٨، ص١٣٦-١٣٩؛ الدوادار: زبدة الفكرة، حـ٩، روقه ٢٩٦-٢٩٧؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٧٢؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك، روقه ١٠٩؛ محمد بن ابى بكر الصديق : نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب. أنظر أيضاً LE ROI HETHOUM II, PP. 542-543; MAKRIZI, HISTORIE DES SULTANS MAMLOUKS DE L'EGYPTE, TRAD. M. QUATREMERE, PARIS, 1845, T. II, 1 RE PARIS., P. 141.

(٢) هو "سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى" ينسب الى "عز الدين الشجاعى" مشد الديوان. قتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٢م وكان من مماليك المنصور قلاوون. ترقى حتى ولى شد الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصرية فى أوائل دولة الناصر محمد، وساءت سيرته وكثر ظلمه. ثم ولى نيابة دمشق فتلطف بأهلها وقل شره، ودام بها سنين ألي أن عزل بالأمير عز الدين أيبك الحموى، وقدم ألي القاهرة. وكان موكبه يضاهى السلطان من التجميل. أنظر : أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، حـ٨، ص٥١-٥٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، حـ٨، ورقه ٣٥٣ وما بعدها؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٢٠؛ تذكرة النبيه، حـ١، ص١٧٢؛ الصفاعى: تالي كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٤٣ب- ٤٤ أ. أنظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى، الملحق الثاني، ص٢٦١، حاشية رقم ١.

(٣) "نائب السلطة" وظيفة ابتدعها الأيوبيون وأحياها السلطان "الظاهر بيبرس" مع ما أحياه من الوظائف الأيوبية. كان نائب السلطنة في ذلك العهد-كما يقول القلقشندى-"سلطانا مختصرا بل هو السلطان الثاني" ويعد نائب السلطنة أكبر أمراء المئين، ويضعه "الخالدى" على رأس أرباب الوظائف بالعاصمة للتفاصيل بالعاصمة أنظر: القلقشندى: حـ٤، ص١٦-١٧.

(٤) هو" شهاب الدين" ابن قاضى القضاء " شمس الدين الخوى الشافعي" قاضى قضاة دمشق وابن قاضيها. ولد في سنة ست وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) وتوفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٣م). أنظر: الكتبى: فوات الوفيات-تحقيق إحسان عباس-حـ٣، ص٣١٣-٣١٤، ترجمة رقم ٤٣٤؛ الصفدى: الوافي بالوفيات، حـ٢، ص ١٣٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، حـ١٣، ص٣٢٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، حـ٥، ص٤٣٣؛ ابن خلدون: العبر، حـ٥، ص ٣٧٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، حـ١، ص٥٤٣؛ المقدسى: الأنس الجليل، حـ٢، ص ٤٦٦.

[1] قاضى القضاه لهذه المدينة على أثر نجاح الأشرف خليل فى الاستيلاء عليـــها. إذ جاء في هذا الكتاب[2]:

"..... وكانت هذه القلعة المذكـــورة
للثغور الاسلامية بمنزلة الشجَّا
فى الحلــق والغلــة فى الصـــــدر،
والخسوف الطارئ على طلعة البدر،
لا تخلو من غِلّ تُضمـــره، فى لـــين
تظهره، وغدر تستره،
فى غدر تورده وتصدره. وقد سكن أهلها
الى مخادعة الجـــار، وموادعـــة التتـــار،
ومالأهم على الاسلام بالنفس والمـــال،
ومساواهم لهم حتى فى الـــزى والحـــال،
ويمدونهم بالهدايا والألطاف، ويدلونهـــم
على عورات الأطراف وهم يقفون بمسالمة
الأيام، ويدعـــون أن قلعتـــهم لم تـــزل
الحوادث فى ذمام ....."[3]

---

(١) نسبة إلى "خوى"، وهى مدينة بأذربيجان. (أنظر: القلقشندى: جـــ٤، ص ٣٥٩). وفى ياقوت "خوى، بلد مشهور من أذربيجان، حصين كثير الخير". أنظر: معجم البلدان، جـــ٢، ص ٤٠٨؛ البغدادي: جـــ١، ص ٤٩٣. أنظر أيضاً: فـــليز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامي، ص٧٩. وكذلك : خريطة رقم ١، ص٧٧، وخريطـــة رقم ٢، ص٨١..

(٢) يوجد نص الخطاب فى كل من ابن أيبك: كنز الدرر، جـــ٨، ورقة ٣٢٧-٣٣٣؛ ابن الفرات: جـــــ٨، ص ١٣٩، ١٤١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـــ٢٦، ورقة ١٠٣ ب-١٠٧ أ؛ وملاحق السلوك. ص ١٢-١٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، جـــ١، ص١٥١-١٥٢؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤؛ اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـــ٣، ورقة ١١ب -١٣ب. انظر ايضا:

DANIEL DE THAURISIO FRATIS DANIELIS ADERRORES IMPOSITOS HERMENIS, P. 648, NOTE A; GESTES DES CHIPROIS, P. 839, NOTE C; R.H.C., DOC. ARM, T. I, P. LII; SEMPAD, P. 654. CF. REY, LES COLONIES FRANQUES, P. 318. وقد ذكر ابن الفرات أن هذا الكتاب من إنشاء الفاضل شرف الدين القدسي. أنظر : تاريخ ابن الفرات، جـــ٨، ص١٣٩.

(٣) زترستين : ص١٤؛ النويرى : جـــ٢٩، ورقة ١٠١؛ اليافعي: مرآة الجنان، جـــ٤، ص ٢١٩؛ تـــاريخ ابـــن الفرات، جـــ٨، ص١٣٩-١٤٠.

وعقب ذلك، تحدث "علم الدين سنجر الشجاعى" عن حصانة قلعة الـــروم مما جعل سكانها يعيشون فى أمن وأمان، إذ يصعب على أي عدو الوصول إليها تنعـــم بحماية طبيعية، فيحيط بها الجبال الشاهقة، بل أن نهر الفرات ساهم بفاعلية فى حمايتـــها من أي عدوان آت من الشرق وزاد من مناعتها أن استدار نهر حولها الغرب "فـلنعطف معها كالسور"؛ إضافة إلى أن الخنادق تحيط بأوديتها. وقد أدرك السلطان الأشـــرف خليل مدى حصانتها [1]، ففي كتابة إلى قاضى القضاة "شهـــاب الـــدين الخـــوبي" قـــارون بين قلعـــة الـــروم ومدينـــة عكـــا فقـــال: "كـــانت أحصـــن مـــن عكـــا"[2]. أمـــا بيبرس الـــدوادار[3] المنصـــورى[4] (ت ٧٢٥خـــ/١٣٢٥م)- الـــذي شـــارك بشخصـــه في حملـــة الأشـــرف خليـــل علـــى قلعـــة الـــروم - فقـــد ذكـــر أنـــها :

"... مـــن أحصـــن[5] القـــلاع
وأعظمهـــــا في الارتفـــــاع
والامتنـــاع ولا تتوصل إليها إلا مـــن
طـــريق صعبـــه المرتقـــى[6] كثيرة

---

(١) نزل السلطان الأشرف خليل بجيشه على قلعة الروم في يوم الثلاثاء ٨ من جمادى الآخر سنة ٦٩١هـــــ/٢٧ مايو ١٢٩٢. أنظر : تاريخ ابن الفرات، جـــ ٨، ص ١٣٦؛ المقريزى: السلوك، جـــ١ ق٣، ص٧٧٨؛ ابـــن أيبك: كتز الدرر، جـــ٨، ورقة ٣٢٣.

(٢) زترستين : ص١١.

(٣) "الدوادار" أي ممسك الداوة، والوظيفة اسمها "الداوادرية" وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمـــير ، ويقـــوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـــ٥، ص ٢٦٢.

(٤) عن ترجمته أنظر: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجر-تحقيق زبيدة محمد عطا-ص٢١-٢٩؛ التحفـة المملوكية في الدولة التركية-نشر عبد الحميد صالح حمدان-لبنان ١٩٨٧-ص٥-١٣؛ فايز نجيب اســـكندر: مملكة أرمينية الصغرى، ص٢٣-٢٥.

(٥) في الكتبى "من أحسن"، والصحيح ما أثبتناه. أنظر: عيون التواريخ، ق١،جـــــ١٢، ورقـــة ٦٤. والجديـــر بالملاحظة أن الكتبى نقل نقلا يكاد يكون حرفيا عن بيبرس الدوادار، مع حذف القليل من الجمل القصيرة الـــتي لا تخل من المعنى؛ حتى أن مخطوط "عيون التواريخ" قد ساعدنا على فك بعض طلاسم مخطوط "زبدة الفكـــرة"، إذ كان بمثابة نسخة ثانية له.

(٦)في الكتبى "المرتقا". عيون التواريخ، ق١،جـــ١٢، ورقة ٦٤..

العقاب والصوى[1] ، لا يستطيع الفارس سلوكها إلا راجلا
لوعورة[2] مسالكها
وصعوبتها على سالكها، وبحر الفرات
يجرى من تحتها ولا منزلة لمن ينازلها
إلا في لحفها...[3]"

في حين كان "أبو الفدا" في مصدره "المختصر في أخبار البشر" شديد الإيجاز في وصف حصانة قلعة الروم، إذ أورد

:"... وهى حصن على جانب الفرات
في غاية الحصانة ... [4] "

وكان حريصا أيضا على إظهار دوره[5] ودور عسكر حماة على وجه الخصوص في فتح قلعة الروم فقد ذكر في مصدرة أن

:"... هذا الحصار أيضا من جملة
الحصارات التى شاهدتها،
وكانت منزله الحمويين على
رأس الجبل المطل على القلعة من
شرقها[6] ، فكنا نشاهد
أحوال أهلها في مشيهم وسعيهم

---

(١) هكذا في بيبرس الدوادار، وجملة "كثيرة العقاب والصوى" ساقطة من الكتبى.

(٢) "لغور مسالكها" في عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٤.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ٩ ورقة ٢٩٧؛ الكتبى: عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٤؛ بيبرس الدوادار: تحقيق زبيدة عطا، ص٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص ١٣٠-١٣١. ويلاحظ اختلاف أسلوب بيبرس الدوادار في مصدره الثاني عن مصدره الأول، إذ أورد: "... وهى أحصن القلاع وأشهرها بالامتناع لأنها مرتفعة غاية الارتفاع، موضوعة في جبال صعبة المسالك ممتنعة عن السالك، لا يتخلص إليها الراجل إلا بعد التعب الشديد والجهد الأكيد، وليس حولها فسحة لنزول العساكر وبحر الفرات يمر من تحتها ملاحفا ولمن يحاولها مزاحفا". قارن: زبدة الفكرة جـ٩، ورقة ٢٩٧ مع النص السابق ذكره والوارد في: التحفة المملوكية ، ص١٣٠-١٣١.

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص ٢٧.

(٥) أبو الفدا : جـ٤، ص٢٦. وقد أشار إلى ذلك اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١٠ب؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٧٨.

(٦) في المقريزى: "كان منجنيق صاحب حماة على رأس الجبل". أنظر : السلوك: جـ١، ق٣، ص ٧٧٨.

في القتال وغير ذلك ... وكان منجنيق الحمويين على رأس الجبل المطل على القلعة. فتقدم مرسوم السلطان إلى صاحب حماة أن يرمي عليهم المنجنيق. فلما وترناه لنرمي عليهم طلبوا الأمان من السلطان.."[1]

ولقلعة الروم أهمية خاصة من الناحيتين الحربية والاستراتيجية، لتحكمها في الطريق البرى ألي بلاد الشام من جهة الشرق؛ ولذلك كانت تسمى "مفتاح بلاد الشام"[2] ، وهى ذات موضع حصين، وتقع في البر الغربي الجنوبي للفرات، شمال غربي حلب، على خمس مراحل منها، على مرحلة غربي البيرة[3]، ويمر بها نهر المرزبان[4] الذي يصب في الفرات. وتقع بين البيرة وبين سميساط[5].

وكان يسكن قلعة الروم أخلاط من الأرمن والتتار [6]. وكانت الكونتيسة "بياتريس" BEATRICE قد أنعمت على بطريرك الأرمن[7] – أى الكاثوليكوس

---

(١) أبو الفداء: ج-٤، ص ٢٧؛ اليونينى : ج-٣، ورقة ١٠ب.

(٢) LE ROIHETHOUM II, DANS R.H.C., DOC. ARM., T. I, P. 543.

(٣) "البيرة" بلد قرب سميساط، بين حلب ومنطقة الثغور الرومية، وهى قلعة حصينة ولها رستاق واسع. (أنظر: ياقوت: جـ٢، ص٣٣؛ البغدادي: جـ١، ص٢٤). وفى الكامل أنها قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى. أنظر: ابن الأثير: جـ٩، ص ١٥٦. أنظر أيضاً :

DUSSAUD, TOPOGRAPHIE HISTORQUE DE LA SYRIE ANTIQUE ET MEDIEVALE, PARIS, 1924, P. 461.

(٤) "مرزبان" عرف هذا اللفظ "أبو الفدا" في "تقويم البلدان" في الكلام عن قلعة الروم، فقال بأنه نهر يجئ من ناحية الجبل ويصب في الفرات تحت قلعة الروم. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٦٩.

(٥) "سميساط" بضم أوله، وفتح ثانية، وياء مثناه ساكنه وسين أخرى، ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطئ الفرات في طرف الروم، على غربي الفرات؛ ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. أنظر: فايز إسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك والسلاجقة، ص٢١٥، حاشية رقم ٤٦٣؛ وص ٢٣؛ حاشية رقم ٥٤٨.

(٦) WIET, HISTORIE DE LA NATION EGYPTIENNE, PARIS, 1937, T. IV, P. 461

(٧) يسمى بطريرك الرمن "كاثوليكوس" CATHOLOCOS ، وهو الرئيس الأعلى لطائفة الأرمن. ويطلق الأرمن عليه "الكاتا غيكوس" . أما المصادر الإسلامية فتارة تلقبه "بترك الأرمن (أنظر: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ ابن الفرات : جـ٨، ص١٣٧)؛ وتارة ثانية "بطرك الأرمن" أنظر: النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ؛ عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٥؛ ابن أبيك : زبدة ، زبيدة عطا، ص ٢٦٨)؛ وتارة ثالثة "كيتا غيكوس" أخذا من الأرمن (أنظر: زترستين، ص١٥، ١٧)، وتارة رابعة "الكاغيكوس" (أنظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٤-٢٥؛

CATHOLICOS–بهذا الموضع الحصين ليتخذه مقـــراً لـــه، كـــان ذلـــك ســـنة ١١٥٠م/٥٤٥هـــ[١]. ومن هنا كان اهتمام الأشرف خليل بقلعة الروم ليجعل منـــها حصناً لصد غارات التتار على سلطنته وأن دل ذلك على شئ فإنما يدل علـــى عمـــق الخبرة لذلك العاهل المملوكي.

على أية حال، عندما علو الملك الأرمني "هيثوم الثاني" بمغادرة جيوش الســـلطان المملوكي حلب في طريقها لمحاصرة "قلعة الروم" أســـرع بـــاحتلال ممـــرات جبـــال الأمانوس، وهي مفتاح الدخول ألي مملكة أرمينية الصغرى[٢]، كذلـــك أردف ذلـــك التصرف الإستراتيجي بالإلحاح في طلب النجدات من خلفائه التتار، ولكنهم تـــأخروا عن إسعافه في الوقت المناسب. ففي هـــذا الصـــدد يذكـــر "رشـــيد الديـــن" (ت ٧١٨هـــ/١٣١٨م) في مصدرة "جامع التواريخ" أنه

" ..وصلت الأنباء من الروم تفيد
إن جيش العداء قد وصل من الشام،
وأن الملك الأشرف قد حاصر قلعة
الروم. وفى شهر رجب توجه
"تايجو أغول بن منكوتيمور" و "طعارجار"
و"يوقدانى الاقتاجى" و "تماجى ايناق"
مع جيش مجهز للقضاء على هؤلاء الأعداء.
وفى نفس شهر شعبان توجه المير
"سوكاى" والأمير "تيمور بوقا"
و "قراجة" الى قلعة الروم عن طريق

ابـــن واصـــل: مفـــرج الكـــروب، جـــ٢، ص ٣٢٠)؛ وتـــارة خامســـة "كينا غيلـــوس" (أنظـــر: أبـــو الفـــدا: جـــ٤، ص٢٧)؛ وتـــارة سادســـة "خليفـــة الأرمـــن" أنظـــر : زترستيـــن، ص١٧.

(١) SMBAT, LA CHRONIQUE ATTRIBUEE AU CONNETABLE SMBAT, TRAD. GERARD DEDEYAN, PARIS, 1980, P. 55, N 34. VAHRAM DEDESSE, CHRONIQUE RIMEE DES ROIS DE LA PETITE ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., I, P. 518; VARTAN LE GRAND, DANS R.H.C., DOS. RAM., I, P. 435.

(٢) LE ROIHETHOUM II, P 542.

أخلاط[1] وأرجيش[2]. ولكن الملك الأشرف استولى على قلعة الـروم فى أواخر رجب، وقتل بعض سكانها، واسـر البعض، وسلم القلعة ألي حراس من قبلـه ، ثم عاد[3]..."

هـذا بينمـا تحـدث المؤرخ بيـبرس الـدوادار في مصـدرية "زبـدة الفكرة في تاريـخ الهجـرة" و "التحفـة المملـوكية في الـدولة التـركية"[4] عـن تلـك النحـدة التتـرية، إذ قـال إن هـدفهـا مفاجئـة جيـوش المماليك، وإكـراههـم علـى فـك حصـارهـم لقلعـة الـروم؛ وارجـع سبـب انسحـاب التتـار الـى ضخـامة جيـوش المماليك، إذ جـرد السلطـان الأشـرف خليـل أربعـة مـن مقـدمـي الألـوف، وانخـرط

---

(١) " أخلاط" أو "خلاط" هى قصبة أرمينية الوسطى، وتقع الشاطئ الشمالى لبحيرة وان VAN، جنوب غرب ملاذكـرد. للتفـاصيل أنظـر : BRYENNIOS TR. GAUTIER, I, CH. XIV P. 108, N.2;
CONSTANTINE PORPHORIGENITUS, VOL. II, COMMENTARY, PP. 167-168. CF. CANARD, HISTOIRE DE LA DYNASTIE DES HAMDANIDES, PARIS, 1953, 184
أنظر ا ايضاً : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات العربية الأرمينية – دراسة تاريخية مع عرض وتحليل ودراسة مقترنة للمصادر والمراجع-مجلة سيرتا-العدد ٩/٨-الجزائر ١٩٨٣-ص٣٨؛ البيزنطيين والأتـراك السـلاجقة فى معركـة ملازكـرد-الإسكندرية ١٩٨٤-ص٧١-٧٤، حاشية رقم ٧٢؛ الحياو الاقتصادية فى أرمينية إبان أرمينية إبان الفتح الإسـلامي، ص ٤٠-٤١.

(٢) "أرجيش" مدينة من نواحى أرمينية الكبرى، قرب خلاط، وتقع على الشواطئ الشمالية لبحـيرة وان VAN ، وأكـثر سكانها من الأرمن. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص٢١١، حاشـية رقم ٤٤٦.

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثانى-نقلة عن الفارسية فواد عبد المعطى الصياد-القـاهرة ١٩٦٠-جـ٢، م٢، ص ١٧٨-١٧٩.

(٤) "التحفة المملوكية" ما هو إلا موجز المخطوط زبدة الفكرة، إلا أن بيبرس الدوادار توقف فيـه عـن أحـداث سـنة ٧١١هـ/١٣١١م. وبمقارنة المصدرين نلاحظ أن "التحفة المملوكية" فيه تفسير وتوضيح لبعض موضوعـات "زبـدة الفكرة" الموجزة؛ وخير مثال على ذلك، تناول المصدرين لثورة المماليك السلطانية الأشرفية سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م؛ إذ جنح الدوادار الى سرد أحداثها بإيجاز فى "زبدة الفكرة" في حين زودنا بتفاصيلها في "التحفة المملوكية" .

المؤرخ بيبرس الدوادار المنصورى في تلك التجريدة[1] ، وكان من مضاف الأمير بدر الدين بكتاش[2] أمير سلاح[3] .

هكذا حاصرت جيوش الشرف خليل قلعة الروم، واستمر حصارها حوالي ثلاثة وثلاثين يوما، وضربت أسوارها بعشرين منجنيقا. وقد عين "النويرى" (ت ٧٣٢هـ ١٣٣٢م) في مخطوطة "نهاية الأرب في فنون الأدب" أنواع هذه المجانيق فقال أن

"... خمسة منها فرنجية وخمسة عشر
قرابغا{صحتها "قرابغرى". أنظر: أرنبغا
الزردكاش: الأنيق فى المنلحيق، ص٣،٧،٨}
وشيطانية..."[4]

---

(١) "التجريدة" جمعها "تجاريد" بمعنى الحملة الحربية. أنظر: خليل بن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك-باريس ١٨٩٤- ص ١٣٦.

(٢) هو "بكتاش بن عبد الله الفخري"، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م. وقد اتصف بالشجاعة والعقل والخير وكان مقدما على الجيوش. أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل الى ملك الملك الصالح نجم الدين، فترقى فى الخدمة حتى صار من أكابر الأمراء، وغزا غير مرة. ولما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته فامتنع وأشار بعود السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. للتفاصيل أنظر: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي-تحقيق نبيل عبد العزيز-القاهرة ١٩٨٥-جـ٣، ص٣٨٥، ترجمة رقم ٦٧٥؛ ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٤، ترجمة رقم ١٣٠١؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٧٢؛ الصفاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 2061 – ورقة ٥٦، ترجمة رقم ٨٦؛ المقريزى: المقفى الكبير-مخطوط بالمركز القومي للأبحاث العلمية بباريس CNRS رقم 2832 – ورقة ٢٥٤ أ –٢٥٥ ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٢٢٤؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص٢٧٧.

(٣) يلي الأتابكية فى المكانة وظيفة "أمير سلاح"، وصاحبها هو رئيس السلاحدارية من المماليك السلطانية، ووظيفته حمل سلاح السلطان فى المواكب العامة والأشراف على السلاح خاناه. ويأتي بعده "أمير مجلس" ثم "الدوادار الكبير" الذي يتولى تبليغ الرسائل للسلطان، ورفع القصص، وتقديم البريد إليه؛ كما يحصل على تصديق السلطان على المناشير والتواقيع. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص١٨-١٩.

(٤) النويرى : جـ ٢٩، ورقة ١٠٠ ب. أنظر أيضا: ابن الفرات: جـ ٨، ص٣٦ أ؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك، ورقة ١١٩؛ ابن أبي الفضائل: ص ٢٨٩؛ الباعونى: أرجوزة لطيفة فى التاريخ-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1615 – ورقة ٢٣؛ الذهبى: العبر فى أخبار من عبر مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1680 – جـ٢، ورقة ٢٢٤ب، الصديقى: نزهة الأبصار وجهينة الأخبار-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1561 ورقة ١٠٦ب-١٠٧ب؛ محمد بن

هذا وقد زودنا "المفضل بن أبي الفضـــائل"[1] (توفى في منتصـــف القـــرن الثـــامن الهجري/منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) في مصدره "النهج السديد والدر الفريـــد فيما بعد تاريخ ابن العمد" بتفاصيل عن مواضع تلك المجانيق، إذ جاء في مصدره :"... وحكى الأمير سيف الديـــن بـــن المحفدار، قال إن مدة المقام على حصـــار قلعة الروم ثلاثة وثلاثون يوما، وعدة مـــا نصب عليها من المجانيق تســـعة عشـــر، فرنجية خمسة، وقا بغاية {هكذا فى الصل وصحتها كما وردت فى معظم المصـــادر: قرابغرى} وشيطانية أربعة عشر، خارجـــا عن منجنيق صاحب حمـــاة علـــى رأس الجبل[2] ، ومن الجهة البحريـــة الفراتيـــة الأفرام إثنان، والسلطان واحد فرنجـــى، ومن الجهة الشرقية وعلى جانب الفـــرات بييسرى واحـــد، ومـــن الجهـــة الغربية

أبي السعادات: تاج المعارف وتاريخ الخلايق، ورقة ٦٤ ب، اليافعى: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ المقدســي: نزهة الناظرين، ورقة ٤١ أ. والفرنجية، والقرابغا، والشيطانية ضرب من السلاح وهو نوع من المجانيق. (أنظـر: ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص ٧٨، حاشية رقم ٢). وقد تحدث "أرنبغـــا الزردكـــاش" فى مصدره "الأنيق في المناجيق"-الـــذي يعـــد أهـــم المصـــادر الإسلاميـــة علـــى الإطلاق عن تلـــك الآلـــة المنجنيق المختلفة فقال: "... ومنه الكبير والصغير: فمنه المنجنيق الحربى "القرابغرى" ، وهو عبارة عن آله مـــن خشب جيد لها دفتان قائمتان، تقع فوق كل واحد منهما جتزيرة من خشب وثيق، وبينهما سهم-عريـــض، فثقيل من جهة الذنب، نحيف، فخفيف من ناحية الرأس-قـــد زود بـــأصبع (ص٣)... والمنجنيـــق الحـــربى "القرابغرى" على شاكله المنجنيق الفارسى أو التركى، إلا أن هذا الأخير بدفة وجتزيرة واحـــدة (ص٧-٨) ... ومنه أيضا "الفرنجى"، وهو على ثلاثة أنواع: الأول بصندوقين وسهم يدور من أى جهة يريد الإنســـان (ص٣) ... والمنجنيق الفرنجي مماثل للمنجنيق السلطانى (ص٧) للتفاصيل أنظر : الأنيق فى المناجيق-تحقيق نبيل محمـــد عبد العزيز-ص٣ وما بعدها .

(١) عن ترجمة "مفضل بن أبي الفضائل" وتحليل مصدره أنظر : فايز نجيب إسكندر : مملكة أرمينيـــة الصغـــرى، ص٣٦-٤٠.

(٢) فى أبي الفداء :"... وكان منجنيق الحمويين على راس الجبل المطل على القلعة..." أنظر: المختصر فى أخبـــار البشر، جـــ٤، ص٢٧.

خمس قوا بغاييـــه {صحتهـــا: قرابغـــرى} وشـــيطانية فى الـــوادى خمسة عشر.[1]"

وقد سلط "ابن الجوى"فى مخطوطة "جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك" الأضواء علـــى الصعوبات التي لاقاها جيش المماليك أثناء حصارة لقلعة الروم إذ أورد :"...حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفدار أمـــير جاندار[2] قال : ومما جرى لنا من العجايب علـــى قلعة الروم فى شهر أبيب وهو تموز والعسكر نازل عليها قال: فبينما نحن عليها وإذ لقد هبت ريـــاح مزعجة قوية جدا وشرار وشـــعب الى أن رمـــت ساير الخيام وباتت الناس على وجل، وأصبـــح فى الغد رعدت السماء رعدا قويـــا الى أن ظنـــوا أن السماء تقع على الأرض، وزلت صاعقة أحرقـــت ثلاثة أنفس أحدهم مات والآخر احترق نصفـــه والآخر من الخوف انخلع قلبه ومات[3]"

على أية حال، ضرب الأشرف خليل الحصار حول "قلعة الروم" ، وأخـــذت المنجنيقات ترميها بالأحجار. وقام الأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشـــق بعمل برج خشبى تعلوه قبة، وغطـــاه باللبود، وحصنـــه من كل جانـــب، وأدخـــل فيـــه جنـــودا يقاتلـــون وهـــم بداخلـــه. واســـتمرت الجيـــوش المملـــوكية عشـــرين يومـــا فـــي حصـــارها للقلعـــة، ولكنهـــا لم تنـــل منهـــا منـــالا. فأجمـــع الأمـــراء علـــى توصيل النقـــابين [4] ألـــي ســـور الحصن، وأدخلوا مـــن

---

(١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٣٨٩، أنظر أيضا: المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٧٨؛ زنرستين: ص١٦.

(٢) "أمير جاندار" هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم فى الديوان، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص٢٠؛ جـ٥، ص ٤٥٩.

(٣) ابن الجوزى: جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 7639 - ورقة ١١٩-١٢٠ . أنظر أيضا: اليونينى : ذيل مرآة الزمان، ورقة ١٣ ب - ١٤ أ .

(٤) طريقة "نقب الأسوار" من الطرق المعتادة التي أستخدمها الجيش الأيوبي والمملوكي. وكانت قائمة على نقب أسوار الحصـــن نقبـــا حيث تصبح محمولا على قوائم من الخشب المدهون بالنفط يتم دقها بواسطة النقابين عقب ذلك، تملأ المسافة بين القوائم بمواد ســـريعة الاشتعال كالقش والحطب ونشارة الخشب، ثم تشعل فيها النيران التي بدورها تلتهم القوائم الخشبية، فيسقط السور، ويجد المهاجمون طريقهم إلى الحصن. وحفاظا على أرواح النقابين وخوفا من وقوع السور عليهم، وحماية لهم من التعرض لسهام المدافعـــين عن الحصن ونيرانهم فى محاولة منهم لوضع حد لعملية النقب، كان يتقدم النقابون ســـتار واق أطلـــق عليـــه

الزحافات[1] نحواً من ثمانين حجاراً بمعاولهم، وتقدم الجنود نحو الأسوار. كما قام فريق آخر من الجند برمي السهام ألي القلعة حتى يشغلوا الأرمن عن النقابين. وأخذ النقابون يعملون بمعاولهم في الأسوار، ولكنهم لم يستطيعوا نقبها لصلابة أحجارها [2].

وأتفق في ذلك الوقت أن وصل المعسكر السلطاني نفر من "آل مهنا[3]" وأخبروا السلطان أنهم رأوا جيشا تتريا ثان في طريقة إلى قلعة الروم. فجمع خليل الأمراء للتشاور في الأمر. وفى نفس الوقت أسّرت ألي بيدارا[4] أن يشير على الأمراء بالرحيل وترك القلعة على أن يرجعوا إليها في العام القادم وذلك لشدة البرد وغزارة الأمطار والثلوج هذا العام، بالإضافة ألي خطر التتار الذي يهدد الجيش السلطاني المحاصر للقلعة. فلما سمع الأمراء كلام بيدار سكتوا؛ فقال لهم خليل:

- ماذا تقولون في كلام بيدار ؟

الصليبيون اسم "تستودو" TESTUDO ؛ بينما عرف فى المصادر الإسلامية بعديد من الأسماء منها: المتراسة والجنوية، والطورق والدبابة، والأبراج الخشبية المجلدة الخ.. راجع فى ذلك: فايز نجيب اسكندر: فن الحرب والقتال، ص ١٠١، حاشية رقم ٤. وأيضا: OMAN, ART OF WAR, II, P. 50; ARCHER & KINGSFORD, THE CRUSADES, P. 352.

(١) "الزحافات" مفردها "زحافة" وهى آلة من آلات الحرب والحصار. أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٤٢٢.

(٢) العيني: جـ٢١، ق١، ورقة ٤١-٤٢؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨.

(٣) "آل مهنا" من عشائر البدو المنتشرة في بادية الشام. (للتفاصيل أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص ٢٠٣-٢٠٨). وكان عرب آل مهنا وعرب آل فضل من أبرز من جلبوا للسلطان الناصر محمد الخيول من بلاد الشام، فأصبحوا أصحاب خطوة لديه، وأقطعهم عدة ضياع بأرض حماه وحلب. أنظر: المقريزى : الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٤؛ السلوك، جـ٢، ق٢، ص ٥٢٦-٥٢٧. وأيضا: حلمي محمد سالم: اقتصاد مصر الداخلي وأنظمة في العصر المماليكي، ص ٢٢٣؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٠٦.

(٤) هو "بيدار بن عبد الله المنصورى" نائب السلطنة فى الدولة الأشرفية، وهو الذي خرج على الأشرف خليل وقتله سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م وتسلطن بعده وتسمى بالملك الأوحد لمدة يوم واحد تقريبا حتى قتله خاصكية خليل وعلى رأسهم زين الدين كتبغا الذي تسلطن بعد سلطنة الناصر الأولى. للتفاصيل أنظر: ابن الفرات: جـ٨، ص٧١٧-١٨٨؛ المقريزى: السلوك جـ١، ق٣، ص٧٨٢-٧٩٢؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ٩٨؛ الإسحاقى: لطائف أخبار الأول، ورقة ١٥٨أ؛ مؤلف مجهول: كتاب في تاريخ العالم من آدم ألي الغزو العثمانى، ورقة ٨٩ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٩؛ المقريزى، المقفى، ورقة ٢٧٦أ-٢٧٧أ؛ التلمسانى: سكردان السلطان، ورقة ٩٥ب؛ الطولونى: التحفة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية، ورقة ٩٨أ.

- فقال الأمراء إنهم مصممون على البقاء حتى تسقط قلعة الروم، لأن رجوعه بدون أخذها بعد ذلك الجهد والحصار الطويل فيه خدش ومهانة لكرامة السلطان وجيشه. ثم قال خليل :

- وما العمل مع التتار الذين عبروا الفرات ؟

- فقال الأمير سنقر الأشقر[1]، السلطان يأمرنا وأنا مستعد أن اركب مع بعض الأمراء لنقابل التتار، على أن يستمر السلطان في حصار القلعة حتى لا يشمت فينا الأعداء[2] .

---

(١) كان "سنقر الأشقر" مقيما بصهيون منذ ستة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وقد انتهى ما بينه وبين السلطان قلاوون من الجفاء والصلح منذ شهر صفر سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م؛ واعتقد السلطان وهو بالمرقب أن سنقر الأشقر سيسير إليه وهو بها، أداء لواجب التابع نحو المتبوع، لكنه لم يفعل شيئا منذ ذلك. وعاد السلطان ألي مصر حانقا على سنقر، لما ظهر منه من قلة الوفاء وكثرة الجفاء. وجدير بالذكر أن السلطان قلاوون كان قد ولاه نيابة السلطنة في دمشق في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. وتوفى سنقر مقتولا في سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م. للتفاصيل عن خروج سنقر الأشقر على الملك المنصور قلاوون، راجع: ابن حبيب: تذكرة النبيه ، جـ١، ص١٥٧؛ نهاية الأرب، جـ٢٩، ورقة ٦٩-٧٠، ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١١٢؛ كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٣٤٠؛ السلوك، جـ١، ق٣ ص ٧٨١-٧٨٢؛ تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١٥١؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ١٤٩-١٥٠؛ الصفاعى: تالي كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٨٥، ترجمة رقم ١٢٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٤، ص١٣؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٩٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٩٨-٢٩٩؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ٣، ورقة ١١٠-١١٣. أنظر أيضاً : DARDEL, CHRONIQUE D'ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., T.H. PP. 14-15, NOTE 2.

(٢) العيني: عقد الجمان، جـ٢١، ق١، ورقة ٤١-٤٢. ونستخلص مما أورده العيني أ، بيبرس الدوادار لم يكن شاهد عيان إلا فى التحريدة التى أرسلها الأشرف خليل لمواجهة النجدة التترية، وكان من مضافى الأمير بدر الدين بكتاس-كما أوردنا فى المتن-أما أوائل عمليات الحصار لقلعة الروم، فلم يكن شاهد عيان لها. أضف الى ذلك أنه لم يكن على علم بكتابات البشرى بفتح تلك القلعة، ومنها كتاب أرسله الأمير علم الدين الشجاعى (جاء فى ابن الفرات والنويرى أن هذا الكتاب كان من انشاء الفاضل "شرف الدين القدسى". أنظر: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٣٩؛ نهاية الرب، جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ) الى قاضى قضاة دمشق (ورد ذكر هذا الكتاب فى تاريخ سلاطين المماليك-تحقيق زترستين-ص١٢-١٦، اليونينى : ذيل مرآة الزمان ، جـ٣، ورقة ١١ب-١٣ب؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ-١٠١ب؛ ابن أيبك كنز الدرر، ورقة ٢٨٧-٢٩٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه ، جـ١، ص١٥٠-١٥١؛ درة الأسلاك، ورقة ١١٠-١١١؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك في الخلفاء والملوك، ورقة ١١٣-١١٩؛ ابن الفرات: جـ٨، ص١٣٧-١٣٨) وكذلك الخطاب الذي أرسله السلطان الأشرف خليل الى نفس القاضي؛ (عنه أنظر: زترستين، ص١٠-١٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ورقة ٢٨٤-

وبالفعل، رسم السلطان لسنقر الأشقر وبدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح للزحف لملاقاة التتار. وكان عدد ذلك الجيش ألفي فارس، انضم إليهم جنود من البدو من آل مهنا، وآل فضل[1]، وآل مرا [2]، وبنى كلاب[3]، وأمراء التركمان[4]. وجد الجيش في المسير نحو الفرات وغيره، وسار إلى البر الشرقي نحو يوم وليلة فلم يجد أثراً للتتار الذين ولوا مدبرين بعد تلك المجابهة الثانية[5].

١٨٧؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠٠ب-١٠١أ) وأخيرا الكتاب الذي كتبه الأمام شهاب الدين عبد العزيز بن كمال الدين أحمد بن العجمي. (أنظر: ابن حبيب: تذكره النبيه، جـ١، ص١٥٢-١٥٣؛ درة الأسلاك، ورقة ١١١). - ففي الكتب الثلاثة إشارات مختصرة عن المجهودات الأولية التي قام بها الجيش المملوكي في سبيل الاستيلاء على قلعة الروم ، والتي أغفل المؤرخ بيبرس الدوادار ذكر تفاصيلها رغم كونه شاهد عيان لها .

(١) "آل فضل" هم بنو "فضل بن ربيعه"، ومنازلهم من حمص ألي قلعة جعبر ألي الرحبة آخذين على شقى الفرات وأطراف العراق حتى ينتهي حدهم قبله بشرق ألي الوشم آخذين يساراً إلى البصرة. أنر: القلقشندى: قلائد الجمان في قبائل الزمان ، ص٧٦؛ صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٢٠٤-٢٠٨. بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبى الفرات.

(٢) "آل مرا" نسبة إلى "مرا بن ربيعه"، وهو أخو "فضل بن ربيعه" ومنازلهم فى حوران. للتفاصيل أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ٢٠٨-٢١٠؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان-تحقيق محمد مصطفى-القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٤- جـ١، ص٩٨، ١٠٤، ١٩٦. ويدعى آل فضل وآل مرا وآل مهنا وآل على أنهم من ولد جعفر بن يحيى البرمكى من العباسة بنت المهدى، واتباعهم من أشتات العرب، ودونهم عربان بنى مهدى بالبقاء وزيد بحوران وبنو خالد بحمص. أنظر: العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٧٩؛ ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك، ص١٠٥؛ العمرى: مسالك الأبصار، جـ٣، ورقة ٢٣، ٣٤.

(٣) "بنو كلاب" من أعراب حلب، وكانوا بشمال الشام. للتفاصيل أنظر: ابن ميسر: أخبار مصر-نشر هنرى ماسيه-القاهرة ١٩١٩-جـ٢، ص٤٠؛ القلقشندى ك جـ٤، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤) كان "التركمان" يتشرون فى معظم أنحاء بلاد الشام، وبخاصة مناطق الفرات. "وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة". ويعدد القلقشندى عشر طوائف من تركمان الشام . (للتفاصيل أنظر: القلقشندى: جـ٧، ص١٩٠، ٢٨٢؛ ابن شاهين الظاهرى: ص١٠٤-١٠٥)، وقد استعانت سلطنة المماليك ببعض قبائل التركمان، ووفرت لهم الإقطاعيات نظير قيامهم على حماية أطرافها من الأعداء التاحمين وهو. الصليبيون والتتار والأرمن، هذا فضلا عن مهمة إخضاع القبائل التركمانية الأخرى التي كانت كثيرة الإغارة على بلاد سلطنة المماليك. واستقرت الأمرة على التركمان في الأطراف الشمالية في بيت "دلغادر" تارة وبيت "ابن رمضان" تارة أخرى. وهؤلاء اشهر طوائف التركمان. (للتفاصيل أنظر: القرمانى : أخبار الدول، ص٣٢٩-٣٤٠. أنظر: حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق، ص٥-١٩). ولم تكن أملاك الإمارات التركمانية مستقرة بصفة مستديمي بسبب النزاع المستمر بينهما، والذي كان ينتج عنه زيادة ونقصانا في بعض هذه الأملاك . أنظر: حلمي محمد سالم : المرجع السابق ، ص٩-١٩.

(٥) الدوادار : جـ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩؛ العيني: جـ٢١، ق١، ورقة ٤٢.

ولما بلغ السلطان المملوكي خبر فرار التتار ، زاد في عزمه وفى عزم جيشه على مواصلة حصار القلعة. ومما ساعد جيوش خليل على النصر أن الأمير "علـــم الديـــن سنجر الشجاعى" –الذي كان له النصيب الأوفى في فتح قلعة الروم–تحيـــل في عمـــل سلسلة عظيمة علقها بأسوار بواسطة هذه السلسلة حتى تمكنوا من دخـــول القلعـــة، وبذلك نجحوا في تخريبها، ورفعوا أعلام السلطان عليها [1].

"... ثم تتابعت العســـاكر فملكـــوا
القلعة ولعت السناجق[2] بسرعة وقتل
من وجد فيها من المقاتلة [3]..."

وكانوا من الأرمن والتتار، وأسروا مائتي رجل وطف وامرأة، وأحرقوا قصـــر البطريرك الأرمني وكنيسة، كما أسروا بطريرك الأرمن ستيفانوس الرابـــع[4] (١٢٩٠-١٢٩٣م) STEPHANOS IV وأرسل الى المقدس حيث صلب. أما القساوسة وباقي الأسرى فد أرسلوا إلى القاهرة[5].

---

(١) ابن الفرات: جـــ٨، ص١٣٦؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـــ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ المقريزى: السلوك، جـــ١، ق٣، ص٧٧٨؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـــ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) "السناجق" مفردها "سنجق"، وهو لفظ تركي كان يطلق أصلا على الرمح، ثم أطلق على الرايـــات الصغـــر الصغار التي تربط بطرف الرمح ويحملها السنجقدار. وكانت السناجق تحمل بين يدي السلطان في مواكبـــة. أنظر: القلقشندى: جـــ٤، ص ٨؛ جـــ٥، ص ٤٥٦-٤٥٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـــ١، ص١٩٠، حاشية رقم ٢.

(٣) الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقة ٦٥.

(٤) يدعى "ستيفانوس الرابع كلايتسى" KLAIETSI أي من "قلعة الروم" تولى كرسي بطريركية الأرمن خـلال الفترة من ٢٩٠م إلى أن توفى سنة ١٢٩٣م. للتفاصيل أنظر : BAR HEBRAUS , CHRONICON SYRIACUM, PARIS, 1789, P. 579, TOURNEBIZE, P. 221; HONIGMANN, RUMQAL'A ENC. ISLAM, P. 1258.

(٥) الصديقى : نزهة الأبصار ، ورقة ١٠٧ أ؛ أبن الجوزى: جواهر السلوك ، ورقة ١٢١؛ المقريزى: السلوك، جـــ١، ق٣، ص٧٧٩؛ ابن الفرات: جـــ٨، ص١٣٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـــ١، ص١٤٩؛ زترســـتين؛ تـــاريخ ســـلاطين المماليك، ص١٧. والجدير بالذكر أن المؤرخ الفرنسي المحدث رينيه جروسيه ذكر أن البطريرك الأرمنى ستيفانوس الرابـع اقتيد أسيرا الى دمشق حيث توفى في العام التالي. أنظر L'EMPIRE DU LEVANT, P. 412. وبسقوط قلعة الـروم ، انتقل مقر بطريرك الأرمن الجديد ألا هو جريجور السابع (١٢٩٣-١٣٠٧م) GRIGOR VII إلي "سيس" عاصمـــة مملكة أرمينية الصغرى. وظلت سيس عاصمة لبطاركة الأرمن حتى سنة ١٤٤١م. أنظر: TOURNEBIZE, P.221; GROUSSET, P. 412.

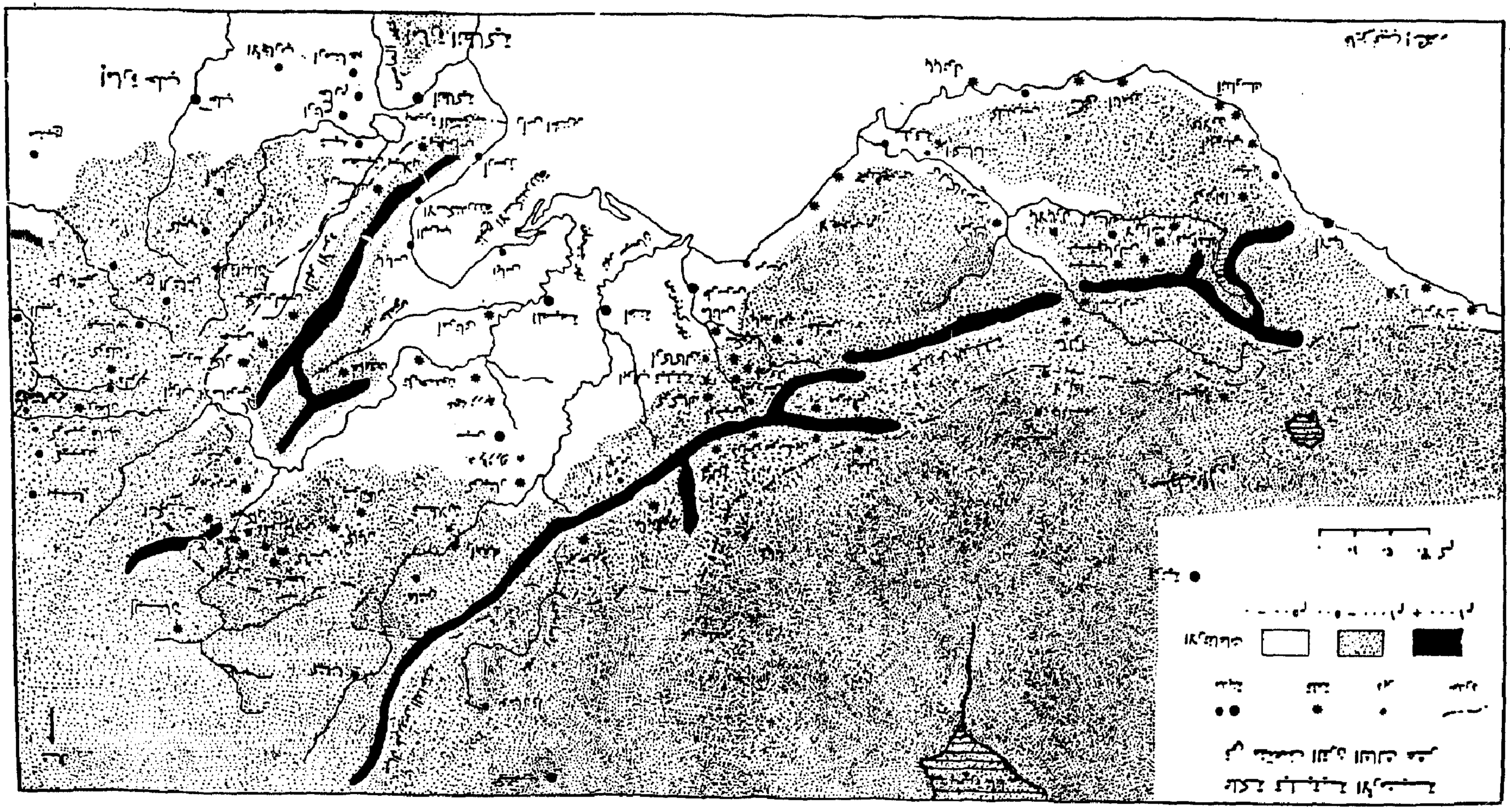

واتفق بعد ذلك وصول الأمير "سيف الدين جنكلى[1]" الى القاهرة، فذكر أنه كان فى تلك السرية، وكان عدد التتار حوالى عشرة آلا ف فارس بقيادة أحد الأمـــراء ويدعى "بيتمش" وكان هدف التتار مباغتة الجيش المملوكى وأخذه على غـــرة أثنـــاء حصاره لقلعة الروم. ولكن لما رأى الجيش التترى كثرة عدد جيش المـــــاليك قفـــل راجعا. وفى غضون ذلك، أصاب الجمال مرض مميت فأباد أكثرهلـــ، فاضطر الجيـــش المملوكى الى حمل الأثقال على البغال[2].

وعقب سقوط قلعة الروم يوم السبت ١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/١١ رجب سنة ٦٩١[3]هـــ أمر السلطان بأن يمحها عنها سمة الرومية وأن تسمى "قلعـــة المســـلمين"، ورتب الأمير " علم الدين سنجر الشجاعى" نائب الشام لعمارتها. فعمر مـــا هدمتـــه المجانيق والثقوب وخرب ربضها[4] . كما عين الأمير " جمال الدين أتشى" نائبا علـــى "قلعة المسلمين[5]".

---

(١) هـــو الأمير "سيف الدين جنكلـــى بن محمـــد بن البابا بن جنكلـــى بن خليـــل بن عبـــد الله" المعـــروف بـــ"أبن الباب العجلى" أتابك العساكر. وكان أصله من بلاد الروم. طلبه الملك الأشرف خليل وكتب له منشـــورا بالإقطاع الذي عينه عليه فلم يتفق حضوره إلا فى أيام الملك الناصر محمد فى سنة أربع وسبعمائة. فأمره وأكرمة ولا يزال يرقيه حتى صار نائب الكرك. وتوفى سنة ٧٤٦هـــ/١٣٤٥م. للتفاصيل ـــنظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهـــرة، جـــ١٠، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) الدوادار: زبدة الفكرة ، ص٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص١٣١. أنظر أيضا HOWORTH, HISTORY OF THE MONGOLS, LONDON, 1876, T.III, P. 336 .

(٣) أدرج رينيه جروسيه سقوط قلعة الروم ىم ٢٩ يونيو ١٢٩٢م، أنظـــر L'EMPIRE DU LEVANT, P.412 وصحة ذلك ما أثبتناه فى المتن استنادا إلى إجماع كافة المصادر الإسلامية على ذلك. أنظر: الدوادار : زبـدة الفكرة، ص٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص١٣١؛ ابو الفداء: جـــ٤، ص٢٧؛ النويرى: جـــ٢٩، ورقـــة ١٠٠ب؛ السلوك، جـــ١، ق٣، ص٧٧٨؛ اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـــ٣، ورقة ١٠ب؛ النجـــوم الزاهـــرة، جـــــ٨، ص١٢؛ ابن الفرات: جـــ٢، ص٢٨؛ العينى : جـــ٢١، ورقة ٥٦ أنظر أيضاً : SEMPAD P. 654; LE ROI HETHOUM II, P. 543; SAMUEL D'ANI, P. 463

(٤) "الربض" سوق القلعة أو المدينة وما حولها من بيوت ومساكن. أنظر : ابن واصل: مفرج الكروب، جـــــ٤، ص١٩٠ حاشية رقم ٢.

(٥) أبو الفداء : جـــ٤، ص٢٧؛ الدوادار : زبدة الكرة ، ص٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص١٣١؛ النهـــى : كتـــاب دول الإسلام ـتحقيق فهيم محمد شلتوت-القاهرة، ١٩٧٤-جـــ١، ص١٣٩؛ اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـــــ٣، ورقـــة ١٤أ؛ تاريخ ابن الفرات، جـــ٨، ص١٣٧؛ كتاب تاج المعارف وتاريخ الخلايف، ورقة ٦٤ب؛ قلماز: العـــبر، ورقـــة ٢٢٤ب؛ اليافعى: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ نزهة الأبصار، ورقة ١٠٧أ؛ الكتبى : عيون التواريخ، ورقة ٦٥.

هكذا سقطت قلعة الروم في قبضة المماليك بفضل الحيلة الحربية الماكرة التي ابتدعها "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشق. وكان السلطان قد رحل ألي حلب فأقام بها بقية رجب وشعبان. ومالبث أن عاد ألي دمشق فرحب به أهلها، وبسطوا شقق الحرير التى لم تجر العادة بأعدادها إلا عند قدومة من مصر. ولكن وزيرة "شمس الدين بن السلعوس" اشار بوضعها فى طريقة احتفاء بفتحة قلعة الروم. وأمضى الأشرف خليل فى دمشق شهر رمضان المبارك وعيد الفطر، ثم عاد الى مصر فدخل "قلعة الجبل" فى يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر سنة ١٢٩٢م/ ثانى ذى القعدة سنة ٦٩١هـ[١] . وتحدث "النويرى" فى مخطوطة "نهاية الأرب فى فنون الأدب" عن أعداد الأسرى الأرمن بعد استيلاء المماليك على قلعة الروم قائلا:

"... ووصل الى الزردخاناه {أى بيت السلاح} السلطانية من الأسرى ألف أسير ومائتا أسير ..."[٢]

كان هذا درسا لمملكة أرمينية الصغرى وعقابا على مواقفها المعادية لمماليك مصر؛ كما كان فى ذات الوقت أنذارا لها بالمصير الذي ينتظرها وكان وشيك الوقوع بعد أن فرغ المماليك فى تصفيه الوجود الصليبى فى بلاد الشام، وإضعاف شوكة التتار بعد الهزائم المتلاحقة التي لحقت بهم على يد المماليك.

وبعد أن تم للسلطان الأشرف خليل الاستيلاء على قلعة الروم ، بعث الى "شهاب الدين بن الخوبي" قاضى القضاة بدمشق كتابا جاء فيه.

"... فإنه بفتح هذه القلعة وحيازة ثغرها ومعلقها تحقق من بسيحون وجيحون[٣] أنهم بعد فتح باب

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد، ص٣٨٩-٣٩٠؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ ابن الفرات : جـ٨، ص١٣٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ، جـ ٢٩، ورقة ١٠١أ-١٠١ب.

(٣) أطلق المسلمون على نهرى سارس SAROS وبيرامس PYRAMUS اسم سيحون وجيمون. وكانا فى صدر الإسلام حدا مائيا بين الخلافة الإسلامية والدولة البيزنطية. للتفاصيل أنظر: البغدادى جـ٣، ص ١٢٢٣؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٧٦-١٧٧؛ ابن رسته: الأعلاق النفسية، المجلد السابع ، ص٩١، " فنهر جيحون" يمر ببلاد الأرمن حتى يتجاوز الدروب، ثم يمر بطرطوس فالمصيصة ، ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب فى البحر المتوسط جنوب سلوقية. (أنظر: ابن خلدون : المقدمة، ص٦٣؛ القلقشندى، جـ٤، ص٨٢؛ أبو الفداء: ص٥٠؛ العبر فى أنباء من غبر ، حاشية رقم ٦؛ سهراب: كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة ، ص

الفـــرات بكسر أقفال هذه القلعة لا يرجون انهم ينجون، وما يكـــون
بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق
والروم والعراق[1] وملك البـــــلاد مـــن
مغرب الشمس الى مطلع الإشراق..."[2]

يتضح لنا من الخطاب السابق الذي أرسله السلطان الشرف خليل الى قـــاضى قضاة دمشق بعد سقوط سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـــ، وبعد استيلائه على قلعة الـــروم[3] فى السنة التالية والذى يبشره فيه بالنصر، أن سلطنة المماليك-وقد خلالها الجو بعد الهزائـم المتلاحقة التى أنزلتها بالتتار وبعد تخلصها من الصليبيين-بدأت فى التوسع شرقا علـــى الحساب ايلخانات فارس. وهى لم تنس بعد مواقفهم السابقة ضدها، وتعاونهم الواضح مع مملكة أرمينية الصغرى فى سبيل أضعـــاف شـــوكتهم. ويؤيـــد هـــذا القـــول أن "كيخايتو"[4] (١٢٩١-١٢٩٤م/ ٦٩٠-٦٩٣هـــ).

١٤٣-١٤٤). وهو نهر بيراس القديم. (أنظر: ابن عبد الظاهر : الروضى الزاهر، ص١٥٠). وقد أطلـــق الأرمـــن عليه نهر الفرات، لأه نهر كبير. (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروضى الزاهر، ص٢٧٠) ونهـــر "ســـيحون" دون "نهـــر جيحون" فى الكبير ، وعليه قنطرة حجارة عجيبة البناء طويلة جدا. أنظر: الاصطخـــرى: المســـالك والممـــاليك ، ص١٤٧ ابن حوقل : صورة الأرض، ص١٨٣.

(١) أوضح مولف مجهول فى مخطوطة أطماع السلطان الأشرف خليل فى التوسع على حساب تتار فارس إذ يقـول: "... ولو طالت أيامة لافتتح غالب بلاد العراق". أنظر : كتاب الجوهر الثمين فى اخبار الخلفاء والســـلاطين، ورقة ٧٢أ . كذلك لم يخف الكتبى الاتجاه التوسعى للأشرف خليل وذلك عند ترجمته له إذ يقول: " ... ولـــو طالت مدته ملك العراق وغيرها" أنظر : الكتبى : فوات الوفيات -تحقيق إحسان عباس، جـــ١، ص٤٠٦.

(٢) زترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص١١-١٢؛ النويرى : نهاية الأرب، جـــ٢٩، ورقة ١٠٠ ب -١٠١أ؛ ابن الفرات: جـــ٨، ص١٣٨.

(٣) امتدح الشهاب محمود السلطان الشرف خليل على فتحة قلعة الروم بقصيدة طويلة أوردها البرزلى في تاريخـــه. أنظر المقفى لتاريخ أبى شامة، ورقة ٤٥٨أ-٤٥٩أ. أنظر أيضا: ابن حبيب : درة الأســـلاك، ورقـــة ١٧٤أ-١٧٥ب؛ زترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٧-٢٠.

(٤) لم تكن حالة دولة تتار فارس فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى / اواخر القرن السابع الهجرى تسمح لهـــا بمتابعـــة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الإسلام، ذلك لأسباب منها الصراع الداخلى بين ملوك فارس حول الاســـتيلاء علـــى العرش. وكان "كيخايتو" خان التتار الذى خلف أخاه "أرغون" سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـــ، وقد أنفق الأموال الكثيرة على ملذاته، مما أدى الى ضعف دولته. فخرج عليه "بيدو" والتقى معه فى قتال شـــديد انتـــهى بمقتـــل "كيخـــاتو" ســـنة ١٢٩٤م/٦٩٣هـــ واستقل "بيدو" بالملك ، فخرج عليه نائب خراسان المسمى "غازان بن أرغـــون" وجمـــع الجيوش وقاتل "بيدو" حتى أخذ الملك منه. وقتل "بيدو" سنة ١٢٩٥م/٦٩٤هـــ بعد معركة حامية قرب همذان للتفاصيل انظر: ابن حبيب: درة الأسلاك ، ورقة ١٢٢-١٢٤؛ المقريزى: السلوك ، جـــ١، ق٣، ص٨١٠؛ ابن الوردى: تتمـــة

خـــان[1] التتـــار بعـــث برســـول الى السلطـــان الأشـــرف خليـــل يحمـــل كتبـــا يتضمـــن المطالبـــة بحلـــب لأن أبـــاه هـــولاكو كـــان قـــد قـــام بغـــزوها من قبل ، ويهـــدد-إن لم يسمـــح لـــه بـــذلك-بغـــزو بـــلاد الشـــام. فأجـــابه الســـلطان ألأشـــرف بأنـــه قـــد

"وافـــق ألقـــان مـــا كـــان فى
نفســـى ، فأنى كنت على عزم من اخـــذ
بغداد وقتل رجاله، فإنى ارجو أن اردهـــا
الى "دار الأسلام" كما كانت وســـينظر
اينا يسبق الى بلاد صاحبه[2]"

وواضـــح من هـــذه الرســـالة عـــزم الأشـــرف خليـــل علـــى التوســـع شرقـــا على حســـاب التتـــار، ومـــدى القوة الـــتى كـــان يشعـــر بهـــا تجـــاه خصمـــه، حيـــث يظهـــر فيهـــا روح التحـــدي والمبـــادرة نتيجـــة للانتصـــارات البـــاهرة التى أحـــرزها حـــتى أنه - كمـــا يتضـــح مـــن ردة الســـابق-طـــالب التتـــار بتسليـــم بغـــداد للإقامة بهـــا ونقـــل الخلافـــة العباسيـــة إليهـــا .

ولقـــد أدرك الملـــك الأرمـــني هيثـــوم الثـــانى جســـامـــة الخطـــر الـــذي يحيـــق ببـــلاده مـــن قبـــل المماليـــك عنـــدما بسقـــوط قلعـــة الـــروم فـــى قبضـــة السلطـــان الأشـــرف خليـــل. ولا شـــك أن الضـــربات النـــاجحـــة الـــتى وجههـــا المماليـــك الـــى بقـــايا المستعمـــرات الصليبيـــة فـــى بـــلاد الشـــام وحلفائهم التقليديين قد هزته هزا عنيفا؛ وزاد الطين بلة أن أمـــر

المختصر فى أخبار البشر، جـــ٢، ص٢٣٩-٢٤٠. أنظـــر أيضـــا D 'OHSON, HISTOIRE DES MONGOLS, AMSTERDAM , 1852, T.IV, PP. 101-106, 132, 141; CHABOT RELATION DU ROI AGROUN AVEC L'OCCIDENT, DANS R.O.L., 1894, PP. 127-128; BARTHOLD, GAIKHATU, DANS ENC.ISL., T. II, P. 135; HOWORTH, T. III, PP. 387-388.

(١) "خاقان" لقب أطلقه التتار على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه "الخان العظم" و "خاقان" يختلف عن "خـــان" الذى أطلقوه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من إمبراطورية التتار. وقد استعمل التتار لقب "خان" أيضا بمعـــنى "خاقان" وربما كان ذلك من بابا الرغبة في الاختصار . انظر ابن ابى الفضائل : النهج السديد ، ص ٧٣، حاشـــية رقم١؛ المقريزى: السلوك ، جـــ١، ص ٣٠٧، حاشية رقم ٤. أنظر أيضا: فايز نجيب إسكندر: المشرق الإســـلامي في مواجهة تحالف المغول والأرمن-مجلة الثقافة اليمنية-العدد ١٩/سبتمبر -ص١٠٧، حاشية رقم ١٢. وكذلك GESTES DES CHIPROIS, DANS R.H.C., DOC. ARM, T. II, P. 841, N.D.

(٢) المقريزى: السلوك، جـــ١، ق٣، ص٨٧٦. انظر أيضا : D'OHSON, T. IV, PP. 88-90

السلطان المملوكي سنة ١٢٩٣م/٦٩٢هـ بأنقاذ حملة لاستعادة بهسنا[١] من الأرمن[٢]. فلما وصلت الى "سيس"[٣]، بعث الملك الأرمني برسله الى السلطان-وللمرة الثانية - طالبا العفو والأمان. فاستشار السلطان المملوكي الأمراء فى ذلك، فشفعوا فى صاحب سيس ، فاشترط الأشرف: "إن كان صاحب سيس يسلم هذه الثلاث قلاع - وهى قلعة البهسنا وقلعة مرعش[٤] وتل

---

(١) "قلعة بهنسا" تقع شمالى حلب، على نحو أربع مراحل منها، وهى حصينة مرتفعة، بها بساتين ونهر صغير وأسواق ورستاق متسع، وبها مسجد جامع. وهى بلدة واسعة كثيرة الخير والخصب، وهى فى الغرب والشمال الغرب من عينتاب، وبينهما نحو مسيرة يومين، وبينها وبي سيس نحو ستة أيام. وكان لنائبها مكانة جليلة. (أنظر : القلقشندى: جـ٤، ص١٢٠-١٢١؛ ياقوت: جـ١، ص٧٧٠؛ البغدادى، جـ١، ص٢٣٤). وقلعة "بهنسا" من اعظم قلاع "سيس" ، وهى فى فم الدربندات وباب حلب. وكانت فى زمن الناصر صاحب حلب فى ديوانه . فلما ملك هولاكو حلب، كان فى بهسنا نائب يقال له "سيف الدين العقرب" فأباعها لصاحب سيس بمائة ألف درهم ، فأعطاه ستين ألف درهم وتسلم القلعة منه ومنعه الباقى . واستمرت فى أيدي الأرمن الى هذا التاريخ، وكان على المسلمين منها ضرر عظيم". أنظر: كنز الدرر، جـ٨، ورة ٢٩٨؛ النهج السديد، ص ٣٩٣؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، المقدمة الألمانية، ص٤٥؛ الجعفرى : النزهة السنية، ورقة ١٩٧أ؛ النويرى : نهاية الأرب، جـ٢٨، ورقة ٨٨أ؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ٣، ص١٠٤، حاشية رقم٣.

(٢) المقريزى : جـ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٣٢؛ ابن أبي الفضائل: ص٣٩٣؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور؛ زترستين: ص٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ١، ص١٠٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٤. وقد أخطأ "أبو المحاسن بن تغرى بردى" وصنفها تحت أحداث سنة ٦٩٠ هـ بدلا من سنة ٦٩٢هـ. أنظر أيضا: LE ROI HETHOUM II, P. 543; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489. CF. KURKJIAN, A HISTORY OF ARMENIA, NEW YORK, 1958, PP. 250-251.

(٣) الكتبي: جـ١، ق١٢؛ ورقة ٨٢؛ اليونينى : جـ٣، ورقة ٢٧ب؛ أبو المحاسن، جـ٨، ص١٤؛ ابن إياس: جـ١، ص١٠٥؛ ابن الحوزى: جواهر السلوك ، ورقة ١٦٩؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١١٢ ب.

(٤) تقع "مرعش" شمال بلاد الشام، على أطراف آسيا الصغرى. يحدها غربا جبل اللكام، وتطل المدينة على الطريق المؤدى الى مدينة حلب، والثاني المتجه ناحية الجنوب الشرقي الى مدينة الرها، والآخر المتجه شمالا الى الحدث. مما تقدم، يتضح أن مرعش تقع فى المنطقة التى تفصل بين بلاد الشام وآسيا الصغرى من جهة؛ وبين بلاد الشام وقيليقية من جهة أخرى. (للتفاصيل أنظر: القرماني: أخبار الدول وآثار الأول-بيروت ١٩١٩-ص٤٨٨؛ البلاذرى: فتوح البلدان : ص ٢٢٤-٢٢٥؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب-بيروت ١٩٠٩-ص١٩١؛ الحموى: الروض المعطار فى خبر الأقطار-تحقيق إحسان عباس-بيروت ١٩٧٥-ص ٥١٠؛ البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع-تحقيق مصطفى السقا- بيروت ب.د.- جـ٢، ص١٢١٥؛ البغدادى : جـ٣، ص١٢٥٩؛ ياقوت: جـ٥، ص١٠٧؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة - بغداد ١٩٨١ -ص ١٣٩. أنظر أيضا: عبد الرحمن محمد عبد الغنى: الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية - الكويت ١٩٩٠-ص ٣٧ وحاشية رقم ٦٣). ويذكر العيني أن امللك الأرمني هيثوم الثاني طلب من السلطان الأشرف خليل أن يكون نائبا عنه في بهسنا ، فلم يلق هذا الطلب قبولا. أنظر: عقد الجمان، جـ٢١، ق، ورقة ٥٦.

حمـــدون[1]-فأعطوه الأمان، وأن لم يسلم فحاصروه[2]".

فتم الاتفاق على أن يترل الأرمن للمماليك عن بهسنا ومرعش وتل حمـــدون. ورجع العسكر المملوكي من سيس؛ فضلا من ملك مملكة أرمينية الصغرى أعلـن ولاءة للسلطان، ليضع حداً لهجمات الجيوش المملوكية، وليحمى بلاده من الدمار والخـراب. لذلك "ضاعف الحمل والجزية"؛ ففرح الناس بتسلم خاصة "لأنه كان على المســـلمين من بهسنا أدى عظيم[3]"

وقد سلط "اليونيني" الأضواء على الأهمية الاستراتيجية البالغة للقلاع الثلاث وثرواتهـــا الزراعية حين قال

:"... وهذا مرعش وباهسنا {هكـــذا فى الصل ، وصحتها: بهسنا} من أحصـــــن قلاعهم وأعظمـــها، لاســـيما باهســـنا {صحتها: بهسنا} فإنها حصينـــة وبهـــا ضياع كثيرة تزرع، وهو فـــم الدرنبـــد وباب حلب...[4]"

عقب ذلك الاتفاق ، سير الشرف خليل المير "سيـــــف الـــــدين طوغـــان" ورلى دمشـــق مع رسل صـــاحب سيس حـــتى يسلـــم الملـــك الأرمـــــني القـــــلاع

---

(١) "تل حمدون" قلعة حصينة ببلاد الأرمن لها سور جيد حسنة البناء، وهى على تل عال ولها ربض وبين وبـــاتين ونهر يجرى عليها ، وهى على القرب من جيحان على بعد مرحلة من جهة الجنوب عنه، تل حمدون وبين سيس نحو مرحلتين، وبينها وبين أياس نحو مرحلة . أنظر أبو الفداء : تقويم البلـــدان ، ص ٢٥٠؛ القلقشـــندى: جـــ٤، ص١٣٦. انظر أيضا: SMBAT , P. 58 M. 48 CF, CA- HEN, LA SYRIE DU NORD A L'EPOQUE DES CROISADES, P. 147.

(٢) الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ١٢، ٨٢؛ ابن أبى الفضائل : ص٣٩؛ زترستين : ص٢٢؛ السلوك جـــ١، ق٣، ص٧٨٤؛ ابن إياس: جـــ١، ص١٠٥؛ تاريخ ابن الفرات ، جـــ٨، ص١٥٦؛ النويرى: جـــــ٢٩، ورقـــة ١١٢ب؛ ابن الجوزى : جواهر السلوك، ورقة ١٧٠.

(٣) ابن كثير : جـــ١٣، ص٣٣٢؛ النجوم الزاهرة ، جـــ٨، ص١٤-١٥؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقـــة ٨٢-٨٣؛ البرزلى: المقفى، ورقة ٤٥٨؛ اليونينى : جـــ٣، ورقة ٢٧ب؛ ابن اياس: جـــ١، ص ١٠٥؛ تاريخ ابـــن الفرات، جـــ٨، ص ١٥٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، جـــ١، ص ١٦٠. ولقد أوضح المؤلف المجهول صاحب كتاب "تاريخ سلاطين المماليك" أسباب خضوع الملك الأرمنى لمطالب المماليك بقوله ..." أنظر: زترســـتين: تاريخ سلاطين المماليك ، ص٢٢.

(٤) ذيل مرآة الزمان ، جـــ٨، ص١٥٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـــ٢٨ ورقة ٢٩٨؛ المقريزى : جـــــ١، ق٣ ، ٧٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٢؛ الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣.

المذكـــور . وفى ٢٦ مايـــو سنة ١٢٩٣م/أول رجب سنة ٦٩٢هـــ[١]، قدم الـــبريد الى دمشق بتسلم بهسنا مع القلاع المتقدم ذكرها[٢]، وأن نواب السلطان قد تســـلموها وحكموا فيها. فدقت البشائر بذلك "وكان فتح عظيم للمسلمين"[٣]. واستقر "بـــــدر الدين بكتاش الزردكاش المنصورى" فى نيابة بهسنا، وعين لها قاضيا وخطيبا، واستخدم لها رجالا وحفظة كما جرت عادة القلاع[٤] .

وفى يوم الاثنين ١٢ يونيو ١٢٩٣م/١٨ رجب ٦٩٢هـــ، وصل دمشق الأمير " سيف الدين طوغان" وصحبته رسل صاحب سيس[٥]

:"... وكان من جملة القطيعة مائة ألـــف
درهم جددا، ومن الخيل والبغال ثمانيـــة
وخمسون رأسا بما فى ذلك من التقدمـــة
وهو عشرة رؤوس..."[٦]

هكذا كان سقوط قلعة الروم بمثابة زلزال هز كبار مملكة أرمينية الصغـــرى. وقد احسن الأشرف خليل استغلال هذا الانتصار العظيم خير استغلال حـــين أكـــره هيثوم الثاني على التنازل عن ثـــلاث قلاع بالغة الأهمية ألا وهى بهسنا ومرعش وتـــل حمدون. وبذلك تقلصت حـــدود تلـــك المملكـــة، فكـــان فتـــح المسلميـــن لمواضـــع الأربعـــة بمثـــابة مسمـــار دق في نعش مملكة أرمينية الصغـــرى وبدايـــة النهاية لتلك المملكة التى تمخضت عنها الحروب الصليبية.

---

(١) المقريزى: السلوك، جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ تاريخ ابن الفرات، جـــ٨، ص١٥٦. انظر أيضا:
LE ROI HETHOUM II, 54.

(٢) ابن أبي الفضائل : ٣٩٦؛ المقريزى : جـــ١، ق٣، ص٧٨٤؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢ ، ورقة ٨٣؛ زترســـتين: ص٢٣؛ ابن اياس: جـــ١، ص ١٠٥؛ النويرى: جـــ٢٩، ورقة ١١٢ب؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٨٠ ب.

(٣) زترستين : تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٣؛ الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣.

(٤) زترستين : ص ٢٣؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣؛ المقريزى : جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ ابـــن أبي الفضـــائل: ص ٣٩٦. الفضائل:

(٥) زترستين : ص٢٣؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣؛ المقريزى: جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ النويرى: جـــ٢٩، ورقـــة ١١٢ب-١١٣أ. أنظر أيضا : LE ROI HETHOUM II, P. 543

(٦) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية-تحقيق أكسل موبرج-ليـــدن ١٩٠٢-جـــ٣، ص١٤٨؛ العيني: جـــ٢١، ورقة ٥٦. وجـــدير بالذكـــر ان المصادر الأرمنية جنحت إلى الاختصـــار الشـــديد عنـــد ذكـــرها أحـــداث سقوط قلعـــة الروم في قبضـــة الممـــاليك، والعـــلاقات العـــدائية

لمواضع الأربعة بمثابة مسمار دق في نعش مملكة أرمينية الصغرى وبداية النهاية لتلك المملكة التي تمخضت عنها الحروب الصليبية.

وينبغي علينا قبل طي صفحات هذا البحث تقصي أسباب تلك الانتصارات التي حققتها سلطنة المماليك، وأسباب ما لحق الأرمن من هزائم متلاحقة. فحقيقة الأمر، كان ميزان القوى يميل بشدة لصالح المماليك خاصة بعد تمكنهم من كبح جماح التتار في معركة عين جالوت، وما أحرزه بيبرس من انتصارات على الأعداء عامة من تتار وأرمن وصليبيين واستعادته إمارة إنطاكية الصليبية؛ ثم مواصلة قلاوون الألفي انتصاراته على العداء الثلاثة، وتمكنه من استعادة طرابلس من الصليبيين، وأعداده العدة لفتح عكا. وأعقب ذلك سير الأشرف خليل على درب والده ونجاحه في فتح عكا واستغلاله حماس المماليك المتدفق نتيجة ارتفاع روحهم المعنوية لفتح قلعة الروم التي أسماها "قلعة المسلمين" وتنازل هيثوم الثاني عن الثلاث قلاع السالفة الذكر مقابل سحب الجيش المملوكي. فكان الأشرف خليل يتعامل مع الأرمن بمنطق القوى الذي يملي شروطه على الضعيف .

وإذا انتقلنا الى مملكة أرمينية الصغرى، فقد كانت تمر بمرحلة ضعف واضطراب منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / أواخر القرن السابع الهجرى. علما بأن علاقة ملوك الأرمن مع المماليك لم تكن على ما يرام، فالأرمن "... اخبث عدو للإسلام" على حد قول العمرى[1]؛ إضافة الى تعلق ملوكهم بأهداب التحالف مع التتار ألد أعداء المماليك. وقد عبر كل من العمرى والقلقشندى عن ذلك بقولهما "

ولملوك البيت الهولاكوهي عليهم حكم قاهر، وفيهم أمر نافذ[2]". ولم ينس المماليك أن هيثوم الأول (١٢٢٦-١٢٧٠م) HETHOUMI لعب دورا رئيسيا في إقناع خان التتار بإرسال الحملة التي قضت على الخلافة العباسية فى بغداد بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨م، فسطر الأرمن بذلك صفحة داكنة السواد فى علاقتهم مع

- وبين السلطان المملوكى الشرف خليل والملك الأرمنى هيثوم الثانى، وذلك عكس المصادر الإسلامية التى أفردت لهذا الانتصار الصفحات العديدة المتعددة والتى تظهر جليا فى ثنايا هذا البحث . ولعله قد ساء الأرمن أن يسجلوا تلك الهزائم التى لحقت بهم، بينما هللت المصادر الإسلامية بأخبار النصر. وكان هذا أمرا طبيعيا. عن المصادر الأرمنية أنظر :

SAMUEL D ANI, P.463; LE ROI HETHOUM II, P. 542-543 ; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489; SEMPAD, PP. 653-65 .

(١) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥٦.

(٢) العمرى: ص٥٦؛ القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٨، ص٣٠.

المسلمين عامة. وكان الهم الأوحد للأرمن التحالف مع التتار ضد المماليك فى كافة المعارك الدائرة بين الطرفين؛ في حين كان التتار يمرون آنذاك بمرحلة ضعف وانحلال وانقسام، فانعكس ذلك بالتالي على مملكة أرمينية الصغرى .

أما الغرب الأوروبي الذي كان من المفروض أن يناصر الأرمن في حربهم ضد المماليك، فقد كان آنذاك في فترة تغيير وانتقال وكان يعانى من الضعف والتدهور، وأخذ ينصرف تدريجيا عن فكرة الحروب الصليبية. وبدأ الفرد الأوربي يتجه إلى مصالحة الخاصة، والدول إلى مشاكلها الداخلية.

ولقد حرصت البابوية على إصدار النداء تلو النداء طالبة مساعدة مملكة أرمينية الصغرى. إلا أن مساعيها انتهت بالفشل في تعبئة الغرب ضد سلطنة المماليك.

أما الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت المنازعات المذهبية الضارية مع الأرمن عائقا حال دون تقديم المساعدة لهم.

ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أحوال أرمينية الداخلية السيئة ومن أهمها: النزاع الديني بين الأرمن أنفسهم عقب محاولة بعض ملوكهم الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية وما نتج عنه من انقسام الأرمن إلى حربين متقاتلين. إضافة إلى إفلاس الخزانة العامة بسبب الأموال السنوية الطائلة المحمولة من قيليقيا إلى سلطنة المماليك في مصر. علما بأن تلك الأموال كانت تشكل موردا هاما لخزانة الأرمن، الأمر الذي عبر عنه محيى الدين بن عبد الظاهر بقوله "... وانتعشت خزانة الأموال بهذه الجملة العظيمة التى تحمل كل سنة (من مملكة أرمينية الصغرى "[1] . كذلك كان من نتيجة اضمحلال نشاط مملكة أرمينية الصغرى التجاري سوء أحوالها الاقتصادية بعد انصراف التجار عن مينائها اياس[2] .

هكذا كان من الاستحالة على ملوك الأرمن الصمود طويلا في مواجهة التيارات المتلاطمة التي أحاطت بمملكتهم. وقد أدرك ذلك بعينه الثاقبة الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م/٦٥٢-٧٢٤هـ) MARCO POLO فتنبأ لها قبل نصف قرن من الزمان بالسقوط إذ ذكر أنها "كانت فريسة سهلة بين أسد التتار، ونمر المماليك، وذئب الأتراك، وثعبان قراصنة البحر"[3].

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ٩٣.

(٢) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى ، ص٢١٤-٢٥٠.

(٣) MARCO POLO. THE VELS OF MARCO POLO THE VENITIAN. TR. BY WILLIAM MARSDON. LONDON, 1903, T.II. P. 42